

الدكتور
محمود السيد شيخو

الإعجاز في نظم القرآن

الطبعة الأولى

١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

الناشر:

مكتبة الكليات الأزهرية

مسن محمد إمامي وأخوه محمد

الصادقية - الأزهر - القاهرة

تمهيد

نبذة تاريخية عن حياة العرب الادبية قبل الاسلام :

تروى كتب التاريخ والسير أن العرب قبل الاسلام كانوا قبائل متفرقة مختلفة النزعات ، وكان تكل قبيلة تكون وحدة مستقلة ، لها مركزها بين القبائل الاخرى ، ولها حدودها الخاصة ، وحماها المستقل الذى تزود عنه وتنفى فى حمايته ، وكانت كل قبيلة تعتز بماضيها ، وتحرص على تأريخ نضال آبائها وأجدادها وجهادهم لاعلاء شأن القبيلة ، ورعاية أفرادها وحمايتهم ، كما تعتز القبيلة بحاضرها فتمجد شعراءها ، وتفخر بخطابائها . تتغنى بأشعارهم وتروى خطبهم ، لان الخطيب أو الشاعر كان لسان القبيلة الناطق ، ينشر مفاخرها ، ويتغنى بأمجادها ، ولذلك كان الشعراء والخطباء يتمتعون بمنزلة عالية فى المجتمع العربى آنذاك . ونتج عن ذلك أن راجت سوق الادب رواجا كبيرا ، وأدى هذا الرواج الى التنافس بين الشعراء والخطباء أيهم أقدر على اظهار قبيلته بالمظهر اللائق بها بين القبائل الاخرى . ثم تطور هذا التنافس الى المباراة فيما بينهم على قدرة التعبير والتصوير وقوة المعانى وجزالة الاسلوب . فكان من نتيجة ذلك أن سمت أذواقهم ، وتوسعت مداركهم فى الناحية الادبية حتى وصلوا الى رتبة فى البيان والبلاغة والادب لم تستطع الاجيال التى تلتهم أن يلحقوا فى هذا المضمار . وقد وصفهم محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره بأنهم رؤساء صناعة الخطب والبلاغة ، وقيل الشعر والفصاحة والسجع والkehانة . كل خطيب منهم بليغ ، وكل شاعر فيهم فصيح (١) .

وقد وصف عتبة بن أبى سفيان كلامهم أيضا فقال : « ان للعرب كلاما هو أرق من الهواء ، وأعذب من الماء ، مرق من أفواههم مروق السهام من قسيها بكلمات مؤلفات ، ان فسرت بغيرها عطلت ، وان بدلت بسواها من الكلام استصعبت . فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة اذا سمعت ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة اذا طلبت (٢) » .

(١) تفسير الطبرى ج ١ ص ٤ - ٥

(٢) زهر الاداب للحصرى ج ٣ ص ٤٨

وقد أشار الدكتور طه حسين الى النهضة الادبية التى كانت عند العرب ، فى نهاية العصر الجاهلى أى قبيل نزول القرآن ، وأن العرب فى ذلك الوقت كانوا قد بلغوا الذروة فى البيان والبلاغة والادب فقال : « ان العرب فى نهاية العصر الجاهلى أخذوا يخضعون صناعة الكلام لنقد أولى ، ولكن فى أغلب الاحوال شديد ، لانهم كانوا يعولون فيه على سلامة الذوق ، وقد بلغ بهم الامر أن استكشفوا عيوباً فنية فى النظم ، ووضعوا من النصيح والارشاد ما يفيد كلام الخطيب والشاعر فى صناعته (١) » •

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله • نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من
شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا فضل له ، ومن يضلل
فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا
عبده ورسوله صلى الله وعلى آله وصحبه ، ومن أتبع سنته ، واهتدى بهداه
الى يوم الدين •
وبعد

فهذه دراسات حول النظم القرآنى أردت أن أوضح من ورائها بعض
ما ينطوى عليه هذا الكتاب المبين من روعة البيان واعجازه • وكيف أنه أعجز
أساطين البيان من العرب مع أنه منظوم من نفس الحروف والكلمات التى ينظمون
منها كلامهم ؟ وكيف أنه بنظمه الفريد قد أثر فيهم تأثيرا بليغا ، فطار بألبابهم
واستولى على أحاسيسهم ومشاعرهم ، وأدهش عقولهم ، وأوقعهم فى حيرة ،
ووقفوا أمامه مذهولين فمنهم من خضع لسلطانه وأذعن لبلاغته وبيانه ، فدان
له وآمن به عن ادراك وعقيدة بعد أن تذوق حلاوته ، ولمس اعجازه بفطوته العربية
السليمة ، وملكته النفاذة الحكيمة ومنهم من ضاق به ذرعا فكابر وعاند ،
وأضله الله على علم فأنكر الشمس فى وضوح النهار ، وجحد التنزيل بعد
الميقين والاستيقان •

ولم أقصد من وراء هذه الدراسات الى الاستقراء والاستقصاء فمضى
يستعصى عليه مثل ذلك فى هذا الميدان ، وإنما الذى قصدت اليه ، هو أن
أنال رشفة من بحر هذا البيان الالهى ، أمتع بها خاطر والنفس ، وأسعد
بها الفكر والخيال • وحسبى وحسب القارىء أن نقف من وراء ذلك وقفة
التأمل الخاشع عند شاطئ هذا اليم • • نمتع البصر فيما عجز عن ادراك كنهه
العقل ، ونزهف السمع لهذا الذى سجد لبيانه البيان • فكم من جمال تنوب
تأثرا به النفس ، ولا يحده الفكر والعقل ، وكم من حقيقة جاثمة وراء حدود
دلالة النطق والكلام ، فلا يعبر عنها الا الحيرة الخاشعة ، ولا يتبينها سوى
صادق الاحساس •

وقد وضعت هذه الدراسات تحت عنوان « الاعجاز فى نظم القرآن » .

وقد مهدت لها بالحديث عن الحياة الادبية عند العرب قبيل نزول القرآن ، وما كانوا عليه من الفصاحة والبيان . ثم قسمت هذه الدراسات الى خمسة فصول :

تكلمت فى الفصل الاول عن الاعجاز كيف نشأ ؟ وكيف تطور ؟ ثم أمطت اللثام عن وجوهه . وتكلمت فى الفصل الثانى عن الذين كتبوا فى الاعجاز ، فكشف القناع عن جهودهم فى هذا المجال ومدى تأثير بعضهم ببعض فى هذا الميدان ، وناقشت آراءهم وبنيت وجه الصواب فيها .

وفى الفصل الثالث تكلمت عن مظاهر الاعجاز فى القرآن الكريم ، موضحاً هذه المظاهر بالكثير من الامثلة القرآنية .

وفى الفصل الرابع تكلمت عن الاعجاز وعلاقته بالصور والالوان البلاغية ، وهل هذه الصور والالوان معجزة فى القرآن أولا ؟ ووضحت القول فى ذلك ، وأوردت بعض الامثلة القرآنية المشتملة على هذه الصور والالوان ، وقمت بتحليلها حسب طاقتى وعلى قدر فهمى وادراكى .

ثم تحدثت فى الفصل الخامس والآخر عن الاعجاز فى نعم القرآن المنبعث من نظمه الفريد . وقد أيدت ذلك ببعض الامثلة القرآنية ..

والله الكريم أسأل أن يجعل هذه الدراسات خالصة لوجهه الكريم ، وأن يوفقنا دائماً لخدمة القرآن العظيم . انه سميع مجيب ، وهو حسبي ونعم الوكيل ..

الدكتور

محمود السيد شيوخون

الاستاذ المساعد فى الجامعة الاسلامية

بالمدينة المنورة

الفصل الاول

الاعجاز

نشأته - تطوره - وجوهه

فى هذا الفصل من البحث أريد أن أميط اللثام عن فكرة الاعجاز كيف نشأت ؟ وكيف تطورت ؟ فأقول طالبا العون والتوفيق من الله تعالى : ان فكرة الاعجاز قديمة وموغة فى القدم اذ ان أصولها ترجع الى أوائل نزول القرآن الكريم ، فحين نزل جبريل الامين بالقرآن الكريم على خاتم المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كان العرب آنذاك قد بلغوا القمة فى الفصاحة والبيان كما أشرت الى ذلك قبلا ، فلما سمعوه أصابتهم الدهشة ، ووقفوا أمام روعة بيانه حيارى مذهولين ، فكان اعجازه عند هؤلاء القوم ينفذ الى أحاسيسهم ومشاعرهم فيستولى عليها ، ولقد حكى القرآن حيرتهم وما دار على ألسنة شيوخهم وكبرائهم ممن لهم قدم راسخة فى البلاغة والبيان ، فهذا عتبة بن ربيعة ، وكان مقدما فى قومه ، وقد اجتمع اليه نفر من قريش ، وكان محمد صلى الله عليه وسلم جالسا وحده فى المسجد ، وقد حز فى نفوسهم أن يروا أتباع محمد صلى الله عليه وسلم يزيدون ، ويكثرون ، لا سيما بعد أن أسلم حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال عتبة لقومه : ألا أقوم الى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ، فقالوا يا أبا الوليد : قم اليه فكلمه ، فقام اليه عتبة ، حتى جلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن أخى انك منا حيث قد علمت من العشيرة والمكان والنسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم مزقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أمورا ننظر فيها لعك تقبل منا بعضها ، قال : قل يا أبا الوليد ، قال يا ابن أخى ان كنت انما تريد بما جئت ما لا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رثيا (١) تراه لا تستطيع رده عن

(١) الرثى : بفتح الراء فهزمة مكسورة فياء مشددة : التابع من الجن وقيل التابع المحبوب من الجن « النهاية لابن الاثير مادة « رأى » .

نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبترئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل يداوى منه حتى اذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع منه قال : أقد أفرغت يا أبا الوليد قال : نعم قال فاسمع مني قال افعل قال بسم الله الرحمن الرحيم حم : تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عرييا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون(١) » ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها عليه ، فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأتت وذاك فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلما جلس قالوا اننا وراءك يا أبا الوليد ، قال : ورائي أني سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ عظيم ، فان تصببه العرب فقد كيفتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، فقالوا سحرك يا أبا الوليد بلسانه ، قال هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم(٢) .

وهذا الوليد بن المغيرة ، وهو من رؤساء قريش ومن بلغائهم وأبينائهم قد أفرغه وفود العرب إلى مكة ، وقد سمعوا بأمر محمد صلى الله عليه وسلم فيما سيوا جهونهم ، فأشار على قومه ، أن يجمعوا العرب فاجتمع حوله نفر من قريش ، وكل منهم مسحور بهذا القرآن متحير في أمره ، لا يدري ماذا يقول ؟ فأرادوا أن يوكلوا الأمر إلى الوليد بن المغيرة باعتبار منزلته ، وسنه ، يقول رأيي في محمد والقرآن المنزل عليه ، ولكنه رفض ، وقال : بل أنتم فقولوا نسمع ، قالوا : نقول : كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمرة الكاهن ، ولا سبعة ، قالوا : فنقول : انه مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ، ولا تخالجه وسوسته ،

(١) فصلت : ١ - ٤

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٩٩ ط بولاق - نهاية الارب للتويري ج ١٦

من ص ٢١٠ - ٢١١

قالوا فنقول : شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه ،
وهزجه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا فنقول :
ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ،
ولا عقدهم ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس قال والله : ان لقوله لحلاوة ، وان
أصله لمغنى ، وان فرعه لجناة ، وما أنتم بمقاتلين من هذا شيئا ، الا عرف انه
باطل ، وان أقرب القول فيه ، أن تقولوا : ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق
بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته ،
فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبيل الناس حين قدم الموسم ، لا يمر
بهم أحد الا حذروه اياه ، وذكروا له أمره ، فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة
قوله : « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعالت له ما لا ممدودا ، وبينين شهودا ،
ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد ، كلا انه كان لآياتنا عنيدا ، سارھقه
صعودا ، انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم
عبس وبسر ، ثم أدبروا ستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول
البشر (١) .

وأنزل الله فى النفر الذين كانوا معه - أى مع الوليد بن المغيرة - يصنفون
القول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيما جاء به من عند الله
«الذين جعلوا القرآن عضين ، فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون» (٢) .

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان من أساطين العرب وأبينائهم
ينمو الى سمعه أن أخته وزوجها قد أسلما ، فيذهب الى بيت أخته ، يريد أن
يبيضس بها ، ولكنه حين سمع من أخته وهى تتلو القرآن أو قرأ الصحيفة التى
بيدها لم يستطع الوقوف أمام بيان القرآن وروعة نظمه فسرعان
ما سكن غضبه ، وهذأت أعصابه ، وطلب محمدا ليعلم اسلامه .

وينقل ابن الاثير فى البداية عن البيهقى ما نصه : « أن أبا جهل ،
وأبا سفيان ، والاخنس بن شريق خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، وهو يصلى بالليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا
يستمتع منه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى اذا

أصبحوا ، وطلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، قتلواهم ، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم الى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل منهم مجلسه ، فباتوا يسمعون له ، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقالوا لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا فلما أصبح ابن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته ، فقال أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها فقال الأخنس ، وأنا الذى حلفت به ، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فقال يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد فقال : ما سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى اذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نسمع له أبدا ، ولا نصدقه ، فقام عنه الأخنس ابن شريق « (٢) » .

ويروى عن أبى عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » (١) فسجد ، وقال سجدت لفصاحته ، وسمع آخر رجلا يقرأ « فاما استبأسوا منه خلصوا نجيا » (١) فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام « (٣) » .

ولقد كان تأثير القرآن العظيم فى مشركى قريش عاما ، فلم ينج عنه منهم كبير ولا صغير ، رئيس ولا مرؤوس تناولهم هذا التأثير على اختلاف درجات عقولهم ، بل لقد كان فى رؤسائهم أشد وفى فصحاءهم وبلغائهم أقوى من عامتهم ، لانهم أدري بفنون الكلام وأساليبه .

(١) البداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير ج ١ ص ٦٤ ط ٠ مصر .

(٢) سورة الحجر آية ٩٤

(٣) سورة يوسف آية ٨٠

(٤) القاضى عياض ص ٢١٧ وما بعدهما .

وأمام هذا التأثير القوى الذى أدهشهم وأذهلهم ، وأوقعهم فى حيرة انقسموا فريقين :

فريق أذعن وسلم ، وآمن واهتدى ، وفريق كابر وعاند ، ورأى أن خير طريقة للخلاص من تأثر هذا القرآن الانصراف عن سماعه ، وصرف الناس أيضا ، فنزل القرآن على لسانه فقال تعالى : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » (٤) .

فكانوا يجلسون بسبيل الناس لا يمر بهم أحد إلا حذروه من الاجتماع بمحمد صلى الله عليه وسلم والاستماع له (٥) .

وهذا الفريق ظل فى عناده وكفره وجحوده وانكاره وقال : « قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الاولين » (٦) .

وحينئذ تحذاهم القرآن أن يأتوا بمثله ، وأفرغ هذا التحدى فى قوالب مختلفة من اللفظ والأسلوب وأنهضهم الى ذلك بالتقريع والتحميس ، ومختلف أشكال التحدى فقال لهم مرة مؤنبا ومقرعا :

« أم يقولون تقوله • بل لا يؤمنون • فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » (٧) .

وقال لهم بأسلوب آخر « أم يقولون افتراه • قل فاتوا بعشر سور مثله فمتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين • فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون » (٨) وقال لهم مرة : « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا وإن تفعلوا فانقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (٩) ولما عجزوا عن الاتيان بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله وبان عجزهم قال لهم فى تحد بلغ القمة فى البيان « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل

(١) سورة فصلت آية ٢٦

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٩١ ط • بولاق •

(٣) سورة الانفال آية ٣١

(٤) سورة الطور آية ٣٣ - ٣٤ •

(٥) سورة هود ١٣ - ١٤

(٦) سورة البقرة ٢٣ - ٢٤

هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» (٢) وصدق الله العظيم وتمت المعجزة وثبت الإعجاز لهذا الكتاب العظيم الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ومع عجزهم عن التحدى فان بعضا منهم قد أكلت الغيرة قلبه وسولت له نفسه الشريرة أن يعارض القرآن فنزل الميدان وأتى بكلام بارد مضحك وأساليب سخيفة كانت مثار سخرية العقلاء فيما بعد ، ومن هؤلاء مسلمة ابن حبيب الكذاب الذى تنبأ باليمامة فى أواخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد زعم أن له قرآنا آخر يوحى اليه من السماء وقد جاء فى قرآنه هذا فيما رووا قوله :

« يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقى ما تنقنين ، نصفك فى الماء ، ونصفك فى الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين » ومن ذلك قوله : « والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، اهالة وسمناً ، لقد فضلتم على أهل البوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فاووه ، والباغى فناوئوه » وقوله : « والنشاء وألوانها ، وأعجبها السود وأليانها ، والنشاء السوداء ، واللبن الأبيض ، انه لعجب محض ، وقد حرم المذق فما لكم لا تمجعون » (٣) .

وقوله : « الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل » .

ومن هؤلاء أيضاً عبله بن كعب الذى يقال له الأسود العنسى ، وطليحة بن خويلد الأسدى ، وسجاح بنت الحارث التميمية ، والنضر بن الحارث .

وقد رأيت ألا أطيل فى نقل كلامهم فى المعارضة ، لأنه لا يساوى المداد الذى يكتب به ومن أراد الاطلاع على مثل هذا الكلام البارد المضحك السخيف فعليه بكتب الجاحظ ، وإعجاز القرآن للرافعى ، وتفسير الطبرى ولكن هذا الفريق سرعان ما تخاذل ، وافتضح أمره ، وانقطعت أنفاسه ، وظهر عجزه وبأن خطئه مما سبق يستبين لنا أن ادراك العرب الذين عاصروا نزول القرآن للإعجاز كان فطرياً غير مسبوق بدراسة ، ولا طول نظر فى الكتب ، وانما أدركوا هذا الإعجاز بفطرتهم العربية السليمة ، وما جباهم الله من ذوق سليم وفصاحة وبيان ، ولذلك كان إيمانهم بهذا الدين إيماناً راسخاً ، ناضلوا دونه ، وبذلوا دماءهم وأموالهم فى سبيله .

(١) سورة الاسراء ٨٨

(٢) المذق : مزج اللبن بالماء والمجع : اللبن يشرب على التمر .

ولكن بعد أن تقدم الزمن ، وانتشر المسلمون فى أرجاء الأرض بانتشار الاسلام فى الأمصار وابتعدوا عن البيئة العربية السليمة ، واختلطوا بغيرهم من أبناء البلاد المفتوحة ، لم يعد اعجاز القرآن يدرك بالفطرة ، وانما صار ادراكه يتطلب دراسة واعية ومستفيضة للغة العربية ، واحاطة بغيريها ومعرفة تامة بأساليب التعبير فيها ، لتنمو لدى من يريد التصدى لمعرفة الاعجاز ملكة تمكنه من ادراك هذه الناحية فى القرآن العظيم ، فاننتقل الاعجاز من مرحلة « التذوق الفطرى » الى مرحلة « التذوق العلمى » الذى يجب أن تسبقه دراسة واسعة لاساليب اللغة العربية تؤهل صاحبها لادراك ناحية الاعجاز فى القرآن العظيم ، وهذا يعنى أن الاعجاز الذى كانت تدركه أكثرية العرب من الذين عاصروا نزول القرآن الكريم ، أصبح من اختصاص طائفة قليلة من المسلمين ، هى التى بيدها وسائل التذوق الفنى ، ولهذا كثرت التساؤلات والاستفهامات حول اعجاز القرآن الكريم فيم وقع الاعجاز ؟ وفى أى من القرآن ؟ وما هى وجوه هذا الاعجاز ؟ ولماذا صار القرآن معجزا ؟ وهل هو معجز بلفظه أو معناه أو بما يشتمل عليه من الغيبات أو التشريعات ؟

وقد ساعد على كثرة هذه الاستفهامات ، نقل ما دار على ألسنة المعاندين من قريش ، وآيات التحدى التى جاءت لتتحدى من تسول له نفسه الجحود بآيات الله ، ثم الآيات الكثيرة التى نزلت لتحث المسلمين على تدبر معانى القرآن ، وتفهم أحكامه ، وقد استغل الشعوبيون هذه الناحية - أعنى كثرة الاستفهامات - فراحوا ينفثون سمومهم فى صفوف المسلمين ليشككوا بضعاف الايمان فى عقيدتهم كالجعد بن درهم (١) .

ولما ازداد نشاط هؤلاء المغرضين الحاقدين من الشعوبيين فكثرت مطاعنهم فى القرآن الكريم ، واتخذت المسألة شكلا سافرا ، وصارت تشكل خطرا على العامة من المسلمين هب المخلصون من علماء المسلمين للذب عن قرآنهم ، والدفاع عنه ، ورد كيد الكائدين فى نحورهم .

ومن هنا نجد دراسة اعجاز القرآن تتخذ شكلا آخر هو « الدفاع عن القرآن الكريم ، ونفى ما أثاره هؤلاء الشعوبيون من شكوك وأباطيل » .

(١) هو من الموالى ، وقد جاهر بارائه الغريبة ، والمخالفة لنصوص القرآن الكريم فقال : أولا يخلق القرآن ثم أنكر تكليم الله لموسى عليه السلام ، كما أنكر اتخاذ الله ابراهيم خليلا ، وكان أيام هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى فلما سمع به هشام طلبه فظفر به ، وأرسله الى خالد بن عبد الله القسرى عامله على العراق ليقتله فضحى به خالد صباح يوم عيد الأضحى المبارك وكان ذلك حوالى ثمان عشرة ومائة للهجرة .

« الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٣٢٩ ط ٠ ليدن » .

ويمكننا أن نعتبر كتاب « مجاز القرآن » لأبى عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩ هـ مظهر النشاط العلماء فى هذا الباب وذلك لسببين :

الأول : سبب تأليفه لهذا الكتاب ، حين استقدمه الفضل بن الربيع الى بغداد سنة ١٠٨ هـ فسأله أحد جلساء الوزير ، وهو ابراهيم بن اسماعيل الكاتب عن قوله تعالى « **ظَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُئُوسُ الشَّيَاطِينِ** » (١) قائلا لأبى عبيدة انما يقع الوعد والايعاد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف ، متوهما السائل بأن الله سبحانه وتعالى ، قد أوعد بما لم يعرف ، على اعتبار أن الشياطين لا يرون بالعين الباصرة ، فأجابه أبو عبيدة بأن الله سبحانه وتعالى انما كلم العرب على قدر كلامهم ، فلم يأت بما لم يألوه ، واستشهد ببيت امرئ القيس :

أَيَقْتَلْنِي وَالْمَشْرِفَى مُضَاجِعَى
وَمَسْنُونَةُ زَرْقٍ كَأَنِّيَابِ أَغْوَالِ

فقد قرّن له أبو عبيدة بين رؤوس الشياطين ، والغول ، لأن العرب لم يروا الغول أيضا ، ولكن أمره كان يهولهم .

السبب الثانى : هو موضوع هذا الكتاب الذى يتناول فيه أبو عبيدة طرق التعبير القرآنى ليعرضها على ما للعرب من فنون فى التعبير ، فيجد لها مثيلا فيه ، فكان أبا عبيدة فى عمله هذا يريد أن يدل على عربية القرآن وفصاحته ، وأنه لم يأت بغريب فى التعبير لم تألفه العرب .

ولابد أن يكون هذا الاستفسار الذى جوبه به أبو عبيدة مثلا واحدا لحركة واسعة كانت تستهدف النيل من القرآن الكريم ، وهذه الآية التى استنارت أبا عبيدة كانت هى نفسها - على ما يبدو - موضع جدل ونقاش أثاره هؤلاء الطاعنون ، ليدلوا بها على عدم فصاحة القرآن ، ولذلك نرى الجاحظ يورد نفس الآية ، ليدحض ما دار حولها من الافتراءات (٢) .

ثم جاء من بعده الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ فتصدى للشعوبيين الحاقدين ووقف فى وجوههم فألف كتاب النبوة ليرد به على هؤلاء الشعوبيين كما صرح هو نفسه بذلك فقال : « فكتبت كتابا أجهدت فيه نفسى ، وبلغت فيه أقصى ما يمكن مثلى ، فى الاحتجاج للقرآن ، والرد على كل طعان ، فلم أدع فيه مسألة لرافضى ، ولا لحديثى ، ولا لحشوى ، ولا لكافر مباد ، ولا لمنافق

(١) سورة الصافات آية ٦٥

(٢) الحيوان ج ٦ ص ٢١١ - ٢١٣

مقموع ، ولا أصحاب النظام ، ولأن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن حق ، وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل ، وليس ببرهان ، ولا دلالة « (١) » .

ويقول الجاحظ أيضا : « ولى كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف بها فضل ما بين الإيجاز والحذف ، وبين الزوائد ، والفضول ، والاستعارات ، فإذا قرأتها رأيت فضلها فى الإيجاز والجمع للمعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة » (٢) .

وقد امتدح ابن الخياط هذا الكتاب فقال : « لا يعرف المتكلمون أحدا منهم نصر الرسالة ، واحتج للنبوة بلغ فى ذلك ما بلغه الجاحظ ، ولا يعرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن ، وعجيب تأليفه ، وأنه حجة لحمد صلى الله عليه وسلم على نبوته غير كتاب الجاحظ » (٣) .

ولم يقتصر الجاحظ فى دفاعه عن القرآن الكريم على كتاب النبوة و « نظم القرآن » وإنما نراه فى أكثر مؤلفاته لم يترك فرصة إلا ويندد بأعداء القرآن ، وفى إحدى رسائله ، بعد أن يدل على عجز العرب عن الوقوف أمام فصاحة القرآن ، ويأسهم من معارضته ، والتجائهم الى بذل أرواحهم وأموالهم فى محاربته يقول : « وهل يذعن الأطراب ، وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز والتوقيف على النقص ، ثم لا يبذلون مجهودهم ، ولا يخرجون مكنونهم ، وهم أشد خلق الله أنفة ، وأفرطه حمية ، وأطلبه بطائلة ، وقد سمعوه - أى القرآن - فى كل منهل وموقف والناس موكولون بالخطاب ، مولعون بالبلاغات ، فمن كان شاهدا ، فقد سمعه ، ومن كان غائبا فقد آتاه به ، من لم يزوده ، وأما أن يكون غير ذلك ، ولا يجوز أن يطبقوا على ترك المعارضة ، وهم يقدرون عليها ، لأنه لا يجوز على العدد الكثير من العقلاء ، والدهاة والحكماء مع اختلاف عللهم ، وبعد همهم ، وشدة عداوتهم على بذل الكثير ، وصون اليسير ، وهذا من ظاهر التنديد ، ومن جليل الأمور التى لا تخفى على الجهال فكيف على العقلاء وأهل المعارف ؟ فكيف على الأعداء ؟ لأن تحبير الكلام أهون من القتال ومن إخراج المال » .

ثم يصرح الجاحظ بأسماء نفر من الشعوبيين ، ليندد بهم فيقول : « والذى منعمهم - يعنى العرب - من ذلك هو الذى ملع ابن العوجاء ، واسحاق بن طالوت ، والنعمان بن المنذر وأشباههم من الأرجاس الذين استبدلوا بالعز ذلا ، وبالإيمان كفرا ، وبالسعادة شقوة ، وبالحجة شبهة ، بل لا شبهة بالزندقة خاصة ، فقد كانوا يضعون الآثار ، ويولدون الأخبار ويبثونها فى

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٢

(٢) الحيوان ج ٣ ص ٧٦ ط ٠ هارون .

(٣) الانتصار لابن الخياط ص ١٥٤ - ١٥٥

الأمصار ، ويطعنون في القرآن ، ويسألون عن متشابهه ، وعن خاصه وعامه .
ويضعون الكتب على أهله « (١) » .

وكذلك في كتابه « البيان والتبيين » نراه كثيرا ما يشيد بفضل العرب ،
وبلاغتهم وأخلاقهم (٢) وما ذلك الا كرد فعل للموجة التي سادت المجتمع
الاسلامى ، والتي يحاول فيها المغرضون من الشعوبيين التقليل من شأن العرب
وتراثهم الفكرى .

ثم جاء بعد الجاحظ « ابن قتيبة » المتوفى سنة ٢٧٦ هـ فندب نفسه
للدفاع عن القرآن الكريم فعمد الى تأليف كتابه « تأويل مشكل القرآن » وكان
هذا سبب تأليفه لهذا الكتاب ، كما أوضحه ابن قتيبة نفسه فقال : « وقد
اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ، ولغوا فيه ، وهجروا ، واتبعوا « ما تشابه
منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » (٣) بأفهام قليلة وأبصار عليلة ، ونظر
مدخول ، فحرفوا الكلم عن مواضعه ، وعدلوه عن سبيله ، ثم قضوا عليه
بالتناقض ، والاستحالة في اللحن وفساد النظم ، والاختلاف ، وأدلوا في ذلك
بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر ، والحدث الغر ، واعترضت بالشبه في القلوب ،
وقدحت بالشكوك في الصدور ، فأحببت أن أنصح عن كتاب الله ، وأرمى من
ورائه بالحجج النيرة ، والبراهين البينة ، وأكشف للناس ما يلبسون ، فألفت
هذا الكتاب جامعا لتأويل مشكل القرآن مستنبعا ذلك من التفسير بزيادة في
الشرح والايضاح ، وحاملا ما لا أعلم فيه مقالا لامام مطلع على لغات العرب ،
لأرى المعاند موضع المجاز ، وطريق الامكان من غير أن أحكم فيه برأى ،
أقضي عليه بتأويل ، ولم يجز لى أن أنص بالاسناد الى من له أصل التفسير ،
اذ كنت أقتصر على وحى القوم حتى كشفته وعلى إيمانهم حتى أوضحت ،
وزدت في الالفاظ ، ونقصت ، وقدمت ، وأخرت ، وضربت لبعض ذلك الامثال
والاشكال حتى يستوى في فهمه السامعون لا (٤) » .

وقد ركز ابن قتيبة اهتمامه على الآيات التي كانت موضع جدل ونقاش
من قبل هؤلاء الطاعنين ، وقد نوه عن ذلك أثناء كلامه على التشابه والمشكل
من القرآن فقال : « وأصل التشابه أن يشبه اللفظ اللفظ في الظاهر ،
والمعنيان مختلفان قال الله عز وجل في وصف ثمر الجنة : « وأتوا به

(١) حجج النبوة ضمن رسائل الجاحظ التي نشرها السندوسى ص ١٤٥
١٤٦ ط ٠ مصر سنة ١٩٣٣ م

(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٣ ط ٠ مصر سنة ١٣٣٢ هـ .

(٣) آل عمران : ٧

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٧ - ١٨

متشابهها (١) أى متفق المناظر مختلف الطعوم وقال : « تشابهت قلوبهم » (٢) .
أى يشبه بعضها بعضا فى الكفر والقسوة ، ومنه يقال : اشتبه على الامر .
إذا أشبه غيره فلم تكد تفرق بينهما . وشبهت على . إذا لبست الحق
بالباطل ، ومنه قيل لأصحاب المخاريق . أصحاب الشبه ، لانهم يشبهون
الباطل بالحق ، ثم يقال لكل ما غمض ودق . متشابه ، وان لم تقع الحيرة فيه
من جهة الشبهة بغيره ، ألا ترى أنه قد قيل للحروف المقطعة فى أوائل السور .
متشابهة ، وليس الشك فيها والوقوف عندها ، والتباسها بها ، ومثل المتشابه
المشكل ، وسمى مشكلا لأنه أشكل أى دخل فى شكل غيره فأشبهه وشاكله ،
ثم قد يقال لما غموضه من هذه الجهة مشكل . وقد بينت ما غمض معناه
لالتباسه بغيره ، واستتار المعانى تحت لفظه ، وتفسير المشكل الذى ادعى على
القرآن فساد النظم فيه ، وقدمت قبل ذلك أبواب المجاز اذ كان غلط المتأولين
من جهته » (٣) .

وقد استهل ابن قتيبة كتابه هذا بمقدمة تناول فيها صفة القرآن ، وأنه
المعجزة الكبرى التى نسخت سالف الكتب السماوية مشيدا بعجيب نظمه ،
وعظيم معانيه ، مع قلة ألفاظه ومبانيه ، ودلل ابن قتيبة على ذلك بايات من
القرآن لينبه على ما أودعه الله فيها من المعانى بأسلوب لطيف . يقول ابن
قتيبة : « فان شئت أن تعرف ذلك » أى لطف أسلوب القرآن « فتدبر قوله
تعالى : « خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » (٤) .

كيف جمع الله له - أى للرسول صلى الله عليه وسلم - بهذا الكلام
كل خلق عظيم ، لان فى أخذ العفو صلة القاطعين ، والصفح عن الظالمين ،
واعطاء المانعين ، وفى الامر بالعرف تقوى الله ، وصلة الارحام ، وصون اللسان
عن الكذب ، وغض الطرف عن الحرمات ، وانما سمي هذا وما أشبهه عرفا
ومعروفا لان كل نفس تعرفه ، وكل قلب يطمئن اليه ، وفى الاعراض عن
الجاهلين ، الصبر والحلم ، وتنزيه النفس عن ممارسة السفیه ، ومنسازعة
اللبجوج .

وقوله تعالى اذ ذكر الأرض فقال : « أخرج منها ماءها ومرعاها » (٥) .

كيف دل بشيئين على جميع ما أخرج من الأرض قوتها ومتاعا للانعام من

(١) البقرة : ٢٥

(٢) البقرة : ١١٨

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٧٤ - ٧٥

(٤) الاعراف : ١٩٩

(٥) النازعات : ٣١

العشب والشجر والثمر والعصف (١) واللباس والنار والملح لان النار من العيدان والملح من الماء ، وينبئك أنه أراد ذلك قوله تعالى : « **هناك لكم ولأنعامكم** » (٢) ثم يمضى ابن قتيبة في ايراد آيات أخرى (٣) ليتناولها بنفس الطريقة ، وكأن ابن قتيبة في مقدمته هذه يريد أن يبين للقارئ طرفاً من بلاغة القرآن الكريم .

وبعد هذه المقدمة يعقد ابن قتيبة باباً يتكلم فيه عن العرب وما خصهم الله به من العارضة (٤) وقوة البيان ، وتفننهم في أساليب كلامهم ، ومقدرتهم النظرية على الارتجال في المحافل والاندية والمجتمعات ، ثم يتكلم عن اللغة العربية وميزاتها وخصائصها التي انفردت بها عن سائر اللغات بسبب حروف هجائها واعرابها ، ثم يورد أمثلة يبين فيها أثر العرب في استقامة المعنى ووضوحه ، فيستهل هذا الباب بقوله : « **وانما يعرف فضل القرآن من كثر نظره ، واتسع علمه ، وفهم مذهب العرب وافتنانها في الاساليب ، وما خص الله بها لغتها دون جميع اللغات ، فانه ليس في جميع الامم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب خصيصي من الله لما أرهصه في الرسول وأراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب فجعله علمه ، كما جعل علم كل نبي من المرسلين من أشبه الامور بما في زمانه المبعوث فيه** » (٥) .

ثم يتكلم ابن قتيبة عن أسلوب المجاز في اللغة العربية فيقول : « وللعرب المجازات في الكلام ومعناها طريق القول ومأخذه ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والاختفاء والظهار والتعريض والافصاح والكناية والايضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع والجميع خطاب الواحد والواحد والواحد والجميع خطاب الاثنين والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم وبلفظ العموم لمعنى الخصوص مع أشياء كثيرة سنها في أبواب المجاز ان شاء الله وبكل هذه المذاهب نزل القرآن ولذلك لا يقدر أحد من التراجم أن ينقله الى شيء من الالسنه كما نقل الانجيل عن السريانية الى الحبشية وترجمت التوراة والزيور ، وسائر كتب الله بالعربية لان العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب » (٦) وهو يريد من كل ما ذكره من خصائص اللغة

(١) العصف : ورق الزرع وما لا يؤكل منه « لسان العرب ج ١ ص ١٥٢ ط بولاق » .

(٢) النازعات : ٣٣

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٥ وما بعدها .

(٤) العارضة : هي قوة الكلام وتنقيحه والرأى الجيد « لسان العرب

ج ٩ ص ٤٣ » .

(٥) تأويل مشكل القرآن ص ١٠

(٦) المصدر نفسه ص ١٦

العربية وأساليبها أن يبرهن على أنه لا يمكن لأحد الوقوف على أسرار القرآن وفهم أسلوبه ومعانيه إلا بالملم بأساليب اللغة العربية والوقوف على فنون التعبير فيها ، هذا بالنسبة الى العربي أما بالنسبة لغير العربي فانه يحتاج الى ممارسة وطول نظر في لغة العرب حتى يتمكن من ذلك .

ثم استبعد ابن قتيبة . امكن نقل القرآن الى غير اللغة العربية لعدم اتساع تلك اللغات لاساليب اللغة العربية وطرق التعبير فيها . وهذا الحكم من ابن قتيبة هو عين الحقيقة لان المترجم وان تمكن من نقل معانى الالفاظ القرآنية الى اللغة التى يريد ترجمة القرآن اليها لا يتمكن من أن ينقل الى تلك اللغة أسرار لغة العرب وايحاءات التركيب التى امتاز بها القرآن الكريم والتى تملك على العربي أحاسيسه ومشاعره وتهزه حين يطلع عليها . ولما كان المترجم عاجزا عن ذلك فلا يجوز اذن ترجمة القرآن الى غير لغته لان الترجمة ستفقد صفه من صفات اعجازه . ثم بعد ذلك يبدأ ابن قتيبة فى سرد طعون الملحدين فى القرآن تحت عنوان « الحكاية عن الطاعنين » فيذكر فى هذا الباب الآيات التى لاكتها السنة هؤلاء الشعوبيين مبينا وجهة نظرهم ومسجلا اعتراضاتهم ثم يذيل هذا الباب بقوله : « وقد ذكرت الحجة عليهم فى جميع ما ذكروا وغيره مما تركوا ، وهو يشبه ما أنكروا ليكون الكتاب جامعا للفن الذى قصدت له » (١) .

ثم يصنف ابن قتيبة ردوده على هذه الافتراءات الى أبواب هى : « باب لما يتعلق بوجوه القراءات » و « باب لما يتعلق باللحن » وكذلك التناقض والاختلاف والمتشابه والمجاز والاستعارة والمقلوب والحذف والاختصار وتكرار الكلام والزيادة فيه والكنائية والتعريض ومخالفة ظاهرها للفظ معناه وتأويل الحروف التى ادعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم فأفرد ابن قتيبة لكل من هذه الانواع بابا خاصا بها مستقرا معظم سور القرآن ليشير الى ما ورد فيها من ذلك .

فتفى باب الرد عليهم فى وجوه القراءات يقول ابن قتيبة : « وأما ما اغتلاوا به فى وجوه القراءات من الاختلاف فانا نحتج عليهم فيه بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف فافقروا كيف شئتم » وقد غلط فى تأويل هذا الحديث قوم فقالوا السبعة الاحرف وعد ووعيد وحلال وحرام ومواعظ وأمثال واحتجاج . وقال آخرون هى سبع لغات فى الكلمة . وقال قوم : حلال وحرام وأمر ونهى وخبر ما هون كائن بعد وأمثال (٢) . وليس شىء من هذه المذاهب لهذا الحديث بتأويل ومن قال فلان يقرأ بحرف

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٢٥

(٢) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ج ١ ص ٢٢ - ٢٥

أبى عمرو (١) أو بحرف عاصم (٢) فإنه لا يريد شيئاً مما ذكروا وليس يوجد في كتاب الله حرف قرئ على سبعة أوجه يصح فيما أعلم . وإنما تأويل قوله صلى الله عليه وسلم : « نزل القرآن على سبعة أحرف » أى على سبعة أوجه متفرقة فى القرآن يدل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « فاقروا كيف شئتم » وقال عمر : « سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأها ، وقد كان النبی صلى الله عليه وسلم أقرأنيها فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال له : اقرأ ، فقرأ تلك القراءة فقال : هكذا أنزلت ، ثم قال لى : اقرأ ، فقرأت فقال : هكذا أنزلت ، ثم قال : « ان هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقروا منه ما تيسر ، فمن قرأ قراءة عبد الله فقد قرأ بحرفه ، ومن قرأ قراءة أبى فقد قرأ بحرفه ، ومن قرأ قراءة زيد فقد قرأ بحرفة (٣) والحرف يقع على المثال المقطوع من حروف المعجم وعلى الكلمة الواحدة ويقع الحرف على الكلمة بأسرها والخطبة كلها والقصيدة بكما لها » (٤) .

ثم يمضى ابن قتيبة فيتكلم على القراءات السبع وأوجه الاختلاف بين كل من هذه القراءات ، وتحت عنوان « باب التناقض والاختلاف » يدفع ابن قتيبة فيقول : « فأما ما نجلوه من التناقض فى مثل قوله تعالى : « **فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ** » (٥) وهو يقول فى موضع آخر : « **فَوَرَبُّكَ لِنَسْأَلُكُمْ أَجْمَعِينَ** عما كانوا يعملون » (٦) فالجواب فى ذلك أن يوم القيامة كما قال الله تعالى : « **مقداره ألف سنة** » (٧) .

ففى مثل هذا اليوم يسألون ، وفيه لا يسألون لانهم حين يعرضون ويوقفون على الذنوب يحاسبون ، فاذا انتهت المسألة ووجبت الحجة « **انشقت السماء فكانت وردة كالدهان** » (٩) وانقطع الكلام وذهب الخصام ، وأسودت وجوه قوم ، وأبيضت وجوه آخرين ، وعرف الفريقان بسيماهم ، وتطايرت

(١) هو أبو عمرو سعيد بن اياس الشيباني توفي سنة ٩٦ هـ
(٢) هو عاصم بن أبى النجود أحد القراء السبعة توفي سنة ١٢٧ هـ
« الذهبى : طبقات القراء ورقة ٢٤ مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٣٧ تاريخ » .

(٣) يقصد عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب وزيد بن ثابت « تأويل مشكل القرآن حاشية ص ٢٧ » .

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ٢٦ - ٢٧

(٥) الرحمن : ٣٩

(٦) الحجر : ٩٢

(٧) المعارج : ٤

(٨) الرحمن : ٣٧

«الصحف من الأيدي فاخذ ذات اليمين الى الجنة ، وآخذ ذات الشمال الى النار وكذلك قال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انفس ولا جان » قال هو موطن لا يسألون فيه ، ومثله « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » (١) .

وفى باب المجاز يقول ابن قتيبة : « وأما المجاز فمن جهته غلط كثير من الناس فى التأويل ، وتشعبت بهم الطرق ، واختلفت النحل فالنصارى تذهب فى قول المسيح عليه السلام فى الانجيل : « أدعو أبى ، وأذهب الى أبى » الى أبوة الولادة ولو كان المسيح قال هذا فى نفسه خاصة دون غيره لما جاز لهم أن يتأولوه هذا التأويل فى الله تبارك وتعالى عما يقولون علوا كبيرا مع سعة المجاز فكيف وهو يقوله فى كثير من المواضع لغيره كقوله حين فتح فاه بالوحي : « اذا تصدقت فلا تعلم شمالك بما فعلت يمينك فان أباك الذى يرى الخفيات يجزيك به علانية واذا صليتم فقولوا يا أبانا الذى فى السماء ليتقدس اسمك ، واذا صمت فاغسل وجهك ، وادهن رأسك لئلا يعلم ذلك غير أبينا » (٢) .

وقد قرأوا فى الزبور أن الله تبارك وتعالى قال لداود عليه السلام : « سيولد لك غلام يسمى لى ابنا وأسمى له أبا » وفى التوراة أنه قال ليعقوب عليه السلام : « أنت بكرى » وتأويل هذا أنه فى رحمته وبره وعطفه على عباده الصالحين كالأب الرحيم لولده . وكذلك قال المسيح للماء : « هذا أبى » وللخبز « هذا أمى » لان قوام الابدان بهما ، وبقاء الروح عليهما كالأبوين اللذين منهما النشأة ، وبحضانتها السخاء . وكانت العرب تسمى الارض أما لانها مبدأ الخلق واليها مرجعهم ، ومنها أقواتهم ، وفيها كفايتهم قال أمية بن الصلت :

والارض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها الولد
وقال يذكرها :

منها خلقنا وكانت أمنا خلقت ونحن أبناؤها لو أننا شكر
هى القرار فلا نبغى بها بدلا ما أرحم الأرض الا أننا كفر (٣)

وقال الله تعالى فى الكافر : « فإمه هاوية » (٤) لما كانت الام كافلة

(١) القصص : ٧٨

(٢) انجيل متى ص ١٢ ، ١٣ من العهد الجديد ط . جمعية التوراة
البريطانية الامريكية .

(٣) ديوانه ص ٣٢

(٤) القارة : ٩

الولد ، وغاذيته ومأواه ومربيته كانت النار للكافر كذلك جعلها أمه ، وقال ،
فى أزواج النبی صلى الله عليه وسلم : « أو زواجه أمهاتهم » (١) أى كأمهاتهم ،
فى الحرمات الخ » (٢) .

وابن قتيبة فى مؤلفه هذا يعطينا صورة بيئة المعالم للتحويل الذى طرأ على
دراسة اعجاز القرآن حيث اكتسبت هذه الدراسة شكل الدفاع عنه ودحض
أقوال الخصوم الذين سددوا سهامهم المسمومة نحو القرآن الكريم للنيل منه .
فرد الله كيدهم فى نحورهم ، وأطفأ نارهم . غير أن هذه التيارات والحملات
الظالمة التى كان أبطالها الشعوبيون والحاقدون بدأت تضعف نتيجة للجهود
المخلصة التى بذلها علماء المسلمين فى الدفاع عن القرآن الكريم وإظهار زيف
هذه الأقوال أمام الناس وبطلانها وكشف مراميها وأهدافها . ويضعف هذه
التيارات بدأت دراسة اعجاز القرآن الكريم تعود الى اتجاهها الاول . وهو بيان
وجوه الاعجاز فى القرآن الكريم .

وجوه الاعجاز فى القرآن الكريم

لا أريد أن أستفيض فى بحث هذه الوجوه ، واستقصائها ، والحديث
عن مذاهب العلماء فيها ، واختلاف وجهات نظرهم ازاءها ، لان هذا المسالك
يبعثنى عن موضوع البحث وهو « الاعجاز فى نظم القرآن » ولكننى سأتحدث
عن هذه الوجوه بإيجاز ، ثم أبسط القول فى الوجه الذى يخص هذا البحث وهو
« النظم » فأقول مستعيناً بالله وحده :

ان القرآن معجز من وجوه مختلفة بعضها خاص بالعرب الذين درسوا
اللغة العربية ، وتذوقوا بلاغتها ، وبعضها الآخر عام يدركه العقلاء من الناس
على اختلاف أجناسهم .

أما ما يخص العرب من ذلك فهو بديع نظمه ، وعجيب تأليفه وسموه
فى البلاغة الى الحد الذى يعجز الخلق عن الاتيان بمثله .

واعجاز القرآن من هذا الوجه حجة على العرب ، لانهم هم الذين يدركون
هذا المعنى فيه ، والعرب حجة على سائر الناس ، لانهم اذا رأوا أن أرباب
هذه اللغة ، وأدباءها قد قصر بهم الطوق عن تأليف مثله ، أدركوا أنه معجز ،
وأنه ليس مما يقدر عليه البشر وأما ما يدركه من ذلك الناس كلهم فيتلخص
فى ثلاثة وجوه :

(١) الأحزاب : ٦

(٢) تناويل مشكل القرآن ص ٧٦ - ٧٧

الوجه الاول : ما فيه من الاخبار عن المغيبات ، وقد وقعت كما أخبر ، فواضح أن ذلك مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم اليه ، ويوجد من ذلك في القرآن كثير .

فمنه قوله تعالى : « قل للذين كفروا ستعذبون ، وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد » (١) .

وقوله تعالى : « ألم ، غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيفعلون ، في بضع سنين ، لله الامر من قبل و من بعد » (٢) وقوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله بالحق لتدخلن المسجد الحرام ، ان شاء الله آمنين ، محققين رؤوسكم ومقصرين » (٣) .

الوجه الثاني : ما فيه من الاخبار عن الماضي السحيق ، من حين خلق الله آدم الى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، مما لم يكن يعلمه أحد من الناس . ولم يكن مثبتوتا شييء منه الا في الكتب السماوية السابقة ، وقد علم لدى الناس جميعا ، أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يحسن قراءة ولا كتابة ، ولم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين ، وأنبيائهم وسيرهم ولم يعثر مؤرخ أو باحث ، على أنه لازم راهبا ، أو رجلا من علماء الكتب السماوية ليتعلم منه شيئا مما عنده ، واذا كان هذا كله من اليقين ، الذي لم بتطرق اليه شك أى باحث أو مؤرخ ، فمن البدهى اذن ، أنه لا يمكن ، أن يصل الى علم شييء من ذلك الا بتأييد من الرحي الالهى ، واخبار من جهته .

الوجه الثالث : ما يتضمنه هذا الكتاب من التشريع العظيم الدقيق ، المتعلق بشتى أمور الحياة الخاصة والعامة ، والذي عنت لعظمته جباه علماء التشريع والقانون ، وكانوا ولا يزالون يعلنون أنه لا غنى لاي مقنن ، أو مشرع عن الاستفادة من كنز تشريعه ، والاعتماد على مبادئه وأحكامه ، فجميع المؤتمرات الفقهية التي أقيمت في أنحاء مختلفة من العالم أجمعت فيها كلمة علماء الفقه والقانون ، على اختلاف نحلهم ، ومذاهبهم ، على مدى أهمية الفقه الاسلامى ، وروعه ، وضرورة الاقبال على دراسته ، والاستفادة منه (٤) .

(١) آل عمران : ١٢

(٢) الروم : ١ - ٢

(٣) الفتح : ٢٧

(٤) من ذلك المؤتمر القانونى الذى عقد فى « لاهى » سنة ١٩٣٨ م

فقد قرر فى نهايته المؤتمر ، اعتبار الشريعة الاسلامية ، مصدرا من مصادر التشريع العام ، وأنها حية قابلة للتطور ، وأنها شرع قائم بذاته ، ليس مأخوذا عن غيره ، ومن ذلك أيضا مؤتمر المحامين الدولى فى « لاهى » الذى

فإذا تأملت في هذا الفقه الذى يقال عنه هذا الكلام فى القرن العشرين ، انما يعود مصدره الى ما قبل أربعة عشر قرنا من الزمن ، وأن قانونا ما ، لم يبق حيا صالحا خلال عشر هذه المدة ، وأن الذى تنزل عليه هذا القانون رجل أُمى ، لم يقرأ كتابا ، ولم يخط بيمينه حرفا واحدا ، فضلا عن أن يتوفر على دراسة التشريع ، أو أن يعكف على قانون « جوستينيان » أو يجمع من حوله الباحثين وأرباب العلم ، والاختصاص - اذا تأملت فى هذا البداة ، أنه صلى الله عليه وسلم ، لا يمكن أن يصل ، الى علم شىء من ذلك أيضا ، الا من جهة الوحى ، وأخباره (١) .

وقد ذكر الباقلانى هذه الوجوه فى كتابه « اعجاز القرآن » (٢) كما أشار اليها السيوطى فى كتابه « الاتقان » (٤) .

وبعد أن ذكرت هذه الوجوه ، فان حديثى الآن سوف يكون مقصورا ، على الوجه الاول ، وهو ، ما ينطوى عليه هذا الكتاب العظيم من الاعجاز البلاغى ، الذى ووجه به العرب مباشرة ، ثم ووجه به الناس كلهم ، عن طريق العرب ، فكان حجة عليهم كلهم .

عقد فى سنة ١٩٣٨ واشتركت فيه ٥٣ دولة والذى قرر المؤتمر فى نهايته أنه يجب على جمعية المحامين الدولية ، أن تتبنى الدراسة المقارنة للتشريع الاسلامى العظيم وتشجع عليها ، نظرا لما فيه من مرونة ، ولما له من شأن ، ومن ذلك المؤتمر الحقوقى الذى عقد فى « باريس سنة ١٩٥١ ، وقرر ، أن لمبادئ الفقه الاسلامى قيمة تشريعية لا يمارى فيها ، وأن الفقه الاسلامى بمذاهبه ، يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة » .

(١) من روائع لاقراء للبوطن ص ١٣٥ - ١٣٦

(٢) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٥٩

(٣) الاتقان للسيوطى ج ٢ ص ١١٩

الفصل الثانى

« الذين كتبوا فى الاعجاز »

ان الحديث عن الاعجاز فى القرآن الكريم ، ينبغى أن يكون مسبوقا بحديث عن الذين كتبوا فيه لنعرف من خلال كتاباتهم ماذا يريدون من هذا الاعجاز ؟ ولكى نقف على جهودهم فى هذا المضمار ، ونتعرف على آرائهم ، ونستجلى وجهات نظرهم ، ونكشف القناع عن اتجاهاتهم وسنراعى فى الحديث عن هؤلاء التسلسل الزمنى لنستوضح الآراء الاصلية ، والآراء المستفادة من الغير ، ونميز بين المجدد منهم والمقلد . فنقول وبالله التوفيق :

ان الذين كتبوا فى الاعجاز فى القرآن الكريم كثيرون ، ولكن حديثنا سيكون مقصورا على الذين كتبوا فى هذا الجانب بافاضة وعمق ، ولعل أول من أفاض فى هذا الجانب من وجهة نظرنا هو « أبو الحسن على بن عيسى الرمانى » المتوفى سنة ٣٧٤ هـ فى كتابه « النكت فى اعجاز القرآن » .

وان الناظر المتأمل فى كتابه هذا يرى أنه يقرر أن القرآن معجز بالفاظه ، وأسلوبه ، ونظمه ، وأثره فى النفوس اذ نراه يقسم البلاغة الى طبقات ثلاث :

منها ما هو فى أعلى طبقة ، ومنها ما هو فى أدنى طبقة ، ومنها ما هو فى الوسط بين أعلى طبقة ، وأدنى طبقة ، فما كان فى أعلى طبقة فهو معجز ، وهو بلاغة القرآن ، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس . ثم نراه يعيب على من عرف البلاغة بأنها : افهام المعنى أو على أنها تحقيق اللفظ على المعنى ، معللا ذلك بأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ ، والآخر عيبى ، كما أنه قد يحقق اللفظ المعنى ، وهو غث مستكره ، ونافر متكلف : يقول الرمانى : « وليست البلاغة افهام المعنى ، لانه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ ، والآخر عيبى ، ولا البلاغة أيضا بتحقيق اللفظ على المعنى ، لانه قد يحقق اللفظ المعنى ، وهو غث مستكره ، ونافر متكلف » (١) ثم يعرف البلاغة بأنها : ايصال المعنى الى القلب فى أحسن صورة من اللفظ ، وتعريفه هذا يدل على تمتعه بذوق جمالى رفيع ، ينظر من خلاله الى الكلام البليغ ، فكم يكون لطيفا هذا الكلام الذى ينطبق عليه تعريف الرمانى هذا بحيث تنقل ألفاظه ها تحمله من معان الى القلب دون عناء أو تكلف .

ثم يستفيض الرماني في الحديث عن بلاغة القرآن الكريم ، فيجعلها في أعلى رتب البلاغة ، ويقرر أنها معجزة للعرب والعجم فيقول : « فأعلاها - أي أعلى طبقات البلاغة - معجز للعرب والعجم كاعجاز الشعر المفحم . فهذا معجز للمفحم خاصة ، كما أن ذلك معجز للكافة (١) » .

ثم يتوسع الرماني في الكلام على البلاغة ، فيقسمها الى عشرة أقسام ، ويفرد لكل قسم من هذه الاقسام بابا خاصا ، يتكلم عنه فيقول : « والبلاغة على عشرة أقسام : الایجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة وحسن البيان ، ونحن نفسرها بابا بابا ان شاء الله تعالى (٢) : »

ثم يتناول الرماني هذه الابواب العشرة للبلاغة ، بحسب ترتيبها المذكور ، لشرح كل واحد منها ، فيبدأ أولا بباب الایجاز ، فالتشبيه ، ثم الاستعارة ، وهكذا الى نهاية الابواب العشرة .

يبدأ الرماني بباب الایجاز ، فيعرفه أولا ، ثم يأتي بأمثلة على الایجاز بأنواعه من القرآن الكريم ، وبعد أن ينتهي من ذلك يعتقد مقارنة بين ما ورد منه في القرآن ، وبين ما ورد في كلام العرب ، من هذا الفن ، هادفا من وراء ذلك الى بيان فضل ايجاز القرآن على غيره من كلام العرب ، يقول الرماني في تعريف الایجاز :

« الایجاز تقليل الكلام ، من غير اخلال بالمعنى » ، واذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بالفاظ قليلة فالالفاظ القليلة ايجاز .

ثم يقسم الرماني الایجاز الى قسمين :

ایجاز حذف ، وایجاز قصر ، ثم يتكلم عن كل من هذين القسمين فيقول : فالحذف استقاط كلمة للاحتزاء عنها ، بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام .

والقصر : بنية الكلام على تقليل اللفظ ، وتكثير المعنى من غير حذف . فمن الحذف : « واسأل القرية » (٣) ومنه « ولكن البر من التقى » (٤)

(١) النكت في اعجاز القرآن ص ٦٩ - ٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٠ .

(٣) يوسف : ٨٢ .

(٤) البقرة : ١٨٩ .

ومنه « براءة من الله » (١) ومنه - أى من الحذف - حذف الاجوبة ، وهى أبلغ من الذكر ، وما جاء منه فى القرآن كثير ، كقوله تعالى : « ولو أن قرأنا سيرت به أجبال ، أو قطعت به الارض ، أو كلم به الموتى » (٢) كأنه قيل : لكان هذا القرآن ، ومنه « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاؤها ، وفتحت أبوابها » (٣) كأنه قيل : حصلوا على النعيم المقيم الذى لا يشوبه التنغيص ، والتكدير .

ثم يعلل الرمانى بلاغة هذا النوع من الحذف فيقول : « وانما صار الحذف فى مثل هذا أبلغ من الذكر ، لان النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان ، فحذف الجواب فى قولك : « لو رأيت عليا بين الصفيين » أبلغ من الذكر لما بيناه » (٤) .

وأما الايجاز بالقصر دون الحذف ، فهو أغمض من الحذف ، وان كان الحذف غامضا ، للحاجة الى العلم بالمواضع التى يصلح فيها من المواضع التى لا يصلح . فمن ذلك : « ولكم فى القصص حياة » (٥) ومنه : « وأخرى لم تقدروا عليها » قد أحاط الله بها » (٦) الخ . ثم يعقد الرمانى مقارنة بين ايجاز القرآن ، وبين ما استحسنته العرب فى هذا الفن من كلامهم فيقول :

« وقد استحسنت الناس من الايجاز قولهم : « القتل أنقى للقتل » وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت فى البلاغة والايجاز ، وذلك يظهر من أربعة أوجه :
انه أكثر فى الفائدة ، وأوجز فى العبارة ، وأبعد من الكلفة ، بتكرير الجملة ، وأحسن تأليفا بالحروف المتلائمة .

أما الكثرة فى الفائدة : ففيه كل ما فى قولهم : « القتل أنقى للقتل » وزيادة معان حسنة :

منها : ابانة العدل لذكره القصاص ، ومنها : ابانة الغرض المرغوب فيه لذكره لاحياة ، ومنها : الاستدعاء بالرغبة ، والرغبة لحكم الله تعالى به .

(١) التوبة : ١

(٢) الرعد : ٣١

(٣) الزمر : ٧٣

(٤) النكت فى اعجاز القرآن ص ٧١

(٥) البقرة : ١٧٩

(٦) المنافقون : ٤

وأما الإيجاز فى العبارة : فإن الذى هو نظير « القتل أنفى للقتل » قوله :
« القصاص حياة » والاول أربعة عشر حرفا ، والثانى عشرة أحرف .

وأما بعده عن الكلفة بالتكرير الذى فيه على النفس مشقة ، فإن فى قولهم :
« القتل أنفى للقتل » تكريرا غيره أبلغ منه ، ومتى كان التكرير كذلك ، فهو
مقصر فى باب البلاغة عن أعلى طبقة . وأما الحسن بتأليف الحروف المتلازمة :
فهو مدرك بالحس ، وموجود فى اللفظ ، فإن الخروج من الفاء الى اللام ، أعدل
من الخروج من اللام الى الهمزة ، لبعد الهمزة عن اللام ، وكذلك الخروج من
المصاد الى الحاء ، أعدل من الخروج ، من الالف الى اللام . فباجتماع هذه
الامور التى ذكرناها ، صار أبلغ منه وأحسن ، وإن كان الاول بليغا حسنا .

ثم يمضى الرمانى فى الكلام عن الإيجاز من حيث أغراضه ، وفوائده ،
وطرق التعبير به . ثم يختم الرمانى باب الإيجاز هذا بتفضيل هذا اللون من
أساليب الكلام ، على سائر أنواع البيان فيقول : « وأذا قد عرفت الإيجاز ،
ومراتبه ، وتأملت ما جاء فى القرآن منه ، عرفت فضيلته على سائر الكلام ،
وهو علوه على غيره من سائر الكلام ، وعلوه على غيره من أنواع البيان » .

ثم يشرع الرمانى فى تعديد فوائد الإيجاز فيقول : « والإيجاز تهذيب
الكلام بما يحسن به البيان ، والإيجاز تصفية الالفاظ من الكدر ، وتخليصها
من الدرن ، والإيجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الالفاظ ، والإيجاز
إظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير . الخ » .

ولقد أكثر الرمانى من الحديث عن الإيجاز كما رأينا ، فعرفه ، ووضح
أقسامه ، وبين فوائده وأسراره ، هادفا من وراء ذلك الى التذليل والبرهنة
على أن أسلوب القرآن فى أعلى رتب البلاغة كما ذكر ذلك فى أول الكتاب ،
وأنه أسلوب فريد تقصر دونه قوى البشر ومن هنا وقع الإعجاز فيه .

ثم استطرد الرمانى فى إيراد الأمثلة القرآنية فى جميع شعب البلاغة
العشرة ، مشيرا أثناء ذلك الى جمال الأسلوب القرآنى ، وحسن استعماله لهذه
« الفنون البلاغية » .

ولولا الإطالة لذكرت حديثه عن كل الأبواب البلاغة العشرة ، ولكنى
« اكتفيت بحديثه عن الإيجاز لابرهن به على حسن براعته ، وتمكنه من فهم بلاغة
القرآن فهو يتناولها تناول المتذق لحلاوتها ، الفاهم لأسرارها ، الواقف على
حقائقها ثم تحدث عن الإعجاز فى القرآن الكريم » الخطابى حمد بن إبراهيم
« ابن خطاب البستى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ فى كتابه « بيان إعجاز القرآن »

وهذا الكتاب عبارة عن استعراض وجمع لأراء العلماء فى بلاغة القرآن ، ثم اثبات رأيه فى ذلك .

فقال مستعرضا آراء من سبقه من العلماء ناقدا لها ، عائبا أصحابها :
« وزعم آخرون أن اعجازه - أى القرآن - من جهة البلاغة ، وهم الاكثرون من علماء أهل النظر ، وفى كيفيتها يعرض لهم الاشكال ، ويصعب عليهم منه الانفصال . ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا فى تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد ، وضرب من غلبة الظن ، دون التحقيق له ، واحاطة العلم به ولذلك ساروا اذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التى اختص بها القرآن الفائقة فى وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذى يتميز به عن سائر أنواع الكلام المعروف بالبلاغة قالوا : اننا لا يمكننا تصويره ، ولا تحديده بأمر ظاهر ، نعلم مباينة القرآن غيره من الكلام ، وانما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربا من المعرفة لا يمكن تحديده » (١) .

ثم يستدل الخطابى على اعجاز القرآن بما تضمنه من التحدى للعرب قاطبة « مدى عشرين سنة » والقرآن يبسه أحلامهم ، ويعيب آلهتهم ، فعجزوا عنه ، وانقطعوا دونه ، ولجأوا الى مناصبة العداء الذى أريقته بسببه الدماء ، وقطعت الارحام ، وذهبت الاموال .

ثم يعلل عجز البشر عن الاتيان بمثله بقوله : « وانما تعذر على البشر الاتيان بمثله لامور منها : أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية بالفاظها التى هى ظروف المعانى والحوامل ، ولا تدرك أفهامهم جميع معانى الاشياء المحمولة على تلك الالفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء وجوه النظم التى بها يكون اثقالها ، وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الافضل عن الاحسن من وجوهها الى أن يأتوا بكلام مثله ، وانما يقوم الكلام بهذه الاشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لها ناظم .

ثم يتحدث الخطابى عن بلاغة القرآن فيقول : « ان أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها متباينة غير متساوية فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائر الطلق المرسل ، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود ، دون النوع الهجين المذموم الذى لا يوجد فى شىء منه البتة .

فالقسم الاول أعلى طبقات البلاغة وأرفعها ، والقسم الثانى أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه ، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم

هذه الاقسام حصاة واحدة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فاننظم لها بامتراج هذه الاوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة » .

وملخص رأى الخطابى أنه يرى أن اعجاز القرآن راجع الى جمال ألفاظه ، وحسن نظمه ، وسمو معانيه وأثره فى النفوس ولقد صرح بهذا فقال : « واذا تأملت القرآن وجدت هذه الامور فى غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئا من الالفاظ أفصح ولا أجزل ، ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظما أحسن تأليفا ، ولا أشد تلازما ، وتشاكلا من نظمه ، وأما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها ، والترقى الى أعلى درجات الفضل من نعوتها ، وصفاتها وقد توجد هذه الفضائل متفرقة فى أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة فى كلام واحد فلم توجد الا فى كلام العليم القدير ، الذى أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا » (١) وقال أيضا : « ان الذى يوجد لهذا الكلام من العذوبة فى حس السامع ، والهشاشة فى نفسه ، وما يتحلى به من الرونق ، والبهجة ، التى يباين بها سائر الكلام ، حتى يكون له هذا الصنيع فى النفوس ، فتصلح من أجله اللسان على أنه كلام لا يشبهه كلام ، وتحصر الاقوال عن معارضته وتنقطع به الاطماع عنها أمر لابد له من سبب بوجوده ، يجب له هذا الحكم ، وبحصوله يستحق هذا الوصف » (٢) .

وقال : « وثمة وجه آخر من وجوه اعجاز القرآن قد أغفله الناس ، فلا يكاد يعرفه الا الشاذ من آحادهم . وذلك هو صنعية فى القلوب ، وتأثيره فى النفوس ، فانك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ، ولا منشورا اذا قرع السمع ، خلص له القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى ، ما يخلص منه اليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى اذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة ، قد عراها من الوجيب ، والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق . تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس ومضمراتها ، وعقائدها الراسخة فيها » (٣) وقال : « فتفهم الآن ، وأعلم أن القرآن انما صار معجزا لانه جاء بأفصح الالفاظ ، فى أحسن نظوم التأليف ، مضمنا أصح المعانى » (٤) .

والخطابى لا يرد الاعجاز الى الناحية البلاغية فحسب ، ولكنه يعتبر هذه

(١) بيان اعجاز القرآن ص ٢٨

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦

(٣) بيان اعجاز القرآن ص ٦٤

(٤) المصدر نفسه ص ٢٣ - ٢٤

الناحية وجها من وجوه الاعجاز فيه فهو يرى أن وجه الاعجاز في القرآن يتألف من عدة أمور مجتمعة هي : ما تضمنه القرآن من الاخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان ، نحو قوله تعالى : « أَلَمْ • غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ » (١) وكقوله تعالى : « قُلِ الْخَلْفَيْنِ مِنْ الْأَعْرَابِ سَنُدْعُوهُمْ إِلَى قَوْمٍ آوَى بِأَسْ شَدِيدٍ » (٢) • ويعقب هنا - الخطابي فبقول : « ولا يشك في أن هذا ، وما أشبهه من اخباره نوع من أنواع اعجازه ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن ، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها ، لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها ، فقال : « فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (٣) من غير تعيين ، فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا اليه » (٦) •

والخطابي قد أورد هذا الوجه من وجوه اعجاز القرآن في معرض رده على من اعتبر القرآن معجزا من هذه الناحية فحسب •

هذا ملخص رأى الخطابي في اعجاز القرآن الكريم ، وقد عرضه عرضا شيقا ، يدل على ذوق جميل ، وطبع سليم وفهم عميق لاساليب اللغة العربية ، ومعرفة تامة بطرق التعبير فيها ، مكنته من تذوق حلاوة القرآن ، فأثر في نفسه تأثيرا بليغا ، فعبر عن هذا التأثير بأجمل العبارات ، وجعله وجها من وجوه اعجازه ، الا أنني لاحظت عليه أثناء عرضي لرأيك أن هناك تقاربا في الفكرة بينه وبين الرماني وبخاصة فيما يتعلق بالناحية البلاغية ، فكلاهما قد قسم الكلام الى ثلاث مراتب ، ولكنهما اختلفا في أن الرماني قد جعل أعلى رتبة من رتب البلاغة للقرآن خاصة ، وقد عجز البشر عن الوصول اليها ، بينما الخطابي كان يرى أن القرآن قد أخذ من كل هذه الرتب الثلاث ، فحصل له بذلك نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة ، فكلا الرأيين متقاربان ، ولكنه يصعب علينا معرفة أيهما أسبق بالفكرة من الثاني لانهما كانا متعاصرين ، ولما كانا كذلك فلا بد والحالة هذه - أن يكون كل منهما قد أفاد من الآخر •

ثم تحدث عن الاعجاز في القرآن الكريم بعد الخطابي « القاضي أبو بكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلاني » المتوفى سنة ٤٠٣ هـ في كتابه « اعجاز القرآن » ، وقد ألف هذا الكتاب ، ليرد به على منكري الاعجاز في عصره ، وقبل

(١) الروم : ١ - ٣

(٢) الفتح : ١٦

(٣) البقرة : ٢٣

(٤) بيان اعجاز القرآن ص ٢١

عصره ، وان من ينعم النظر فى كتابه يدرك أنه يرى ، أن القرآن معجز بأسلوبه . ونظمه البديع ، وألفاظه ، وأثره فى النفوس ، ولذلك فاننا نراه فى هذا الكتاب يتعرض لكتاب « نظم القرآن » للجاحظ ، ويقرر أنه غير كاف للدلالة على بلاغة النظم ، لان الجاحظ لم يزد عما قاله المتكلمون قبله (١) . ونراه فى كتابه أيضا يستفيض فى الحديث عن نظم القرآن ، فيصف القرآن بأنه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة الى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه ، وأن أسلوب القرآن ونظمه خارجان عما أفه العرب من أساليب كلامهم المنظوم ، والمنثور ، فهو ليس بالشعر ، ولا بالنثر ، ولا بالسجع ، وانما هو أسلوب انفرد به القرآن وحده . وفى هذا يقول :

« ان نظم القرآن على تصرف وجوهه ، وتباين مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد . وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم ، تنقسم الى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم أنواع الكلام الموزون ، غير المقفى ، ثم الى أصناف الكلام المعدل المسجع ثم الى معدل موزون غير مسجع ، ثم الى ما يرسل ارسالا ، فتطلب فيه الاصابة والافادة وافهام المعانى المعترضة على وجه بديع ، وترتيب لطيف ، وان لم يكن معتدلا فى وزنه ، وذلك شبيهة بجملة الكلام الذى لا يتعمل فيه ولا يتصنع له ، وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق ، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع ولا فيه شئ منه ، وكذلك ليس من قبيل الشعر ، لان من الناس من زعم أنه كلام مسجع ، ومنهم من يدعى فيه شعرا كثيرا ، فهذا اذا تأمله المتأمل تبين - بخروجه عن أصناف كلامهم ، وأساليب خطابهم - أنه خارج عن العادة ، وأنه معجز ، وهذه خصوصية ترجع الى جملة القرآن ، وتميز حاصل فى جميعه » (٢) .

ونراه كذلك يفاضل بين أسلوب القرآن ، وبين غيره من أساليب العرب . مبينا فضل القرآن على جميع هذه الأساليب شعرا ، ونظما فيقول : « ومنها - أى من الوجوه التى يباين فيها أسلوب القرآن أساليب العرب - أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الصفة ، والغرابة ، والتصرف البديع ، والمعانى اللطيفة والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة ، والتشابه فى البراعة على هذا الطول ، وعلى هذا القدر .

ومنها : أى من هذه الوجوه - أن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه ، لا بتفاوت ولا يتباين ، على ما يتصرف اليه من الوجوه التى يتصرف فيها ، مع ذكر

(١) اعجاز القرآن ص ٦

(٢) اعجاز القرآن ص ٣٣ - ٣٥

قصص ومواعظ ، واحتجاج ، وحكم ، وأحكام واعذار ، انذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير ، وتخويف ، وأوصاف ، تعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها ، ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المطلق ، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الامور .

ومنها : أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بينا فى الفصل والوصل ، والعلو والanzol ، والتقريب والتبعيد ، وغير ذلك مما ينقسم اليه الخطاب عند النظم ، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع .

ومنها : أن نظم القرآن وقع موقعا فى البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن ، كما يخرج عن عادة كلام الانس ، فهم يعجزون عن الاتيان بمثله كعجزنا ، ويقصرون دونه كقصورنا ، وقد قال الله عز وجل : « قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْاِنْسُ وَالْجِنُّ ۝۝ (الآية) (١) » .

ومنها : أن الذى ينقسم اليه الخطاب من البسط والاقتصاد ، والجمع والتفريق ، والاستعارة والتصريح ، والتجوز والتحقيق ، ونحو ذلك من الوجوه التى توجد فى كلامهم موجودة فى القرآن ، وكل ذلك مما لا يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم فى الفصاحة والابداع والبلاغة .

ومنها : أن المعانى التى تضمنها فى أصل وضع الشريعة ، والاحكام ، والاحتجاجات ، فى أصل الدين والرد على الملحدين ، على تلك الالفاظ البديعة ، وموافقة بعضها فى اللطف والبراعة ، مما يتعذر على البشر ، ويمتنع .

ومنها : أن الكلام يتبين فضله ، ورجحان فصاحته بأن تذكر منه الكلمة فى تضاعيف كلام ، أو تقذف ما بين شعر فتأخذها الاسماع ، وتتشفو اليها النفوس ، ويرى وجه رونقها باديا غامرا سائر ما تقرن به . كالدرة التى ترى فى سلك من خرز ، وكاليا قوته فى واسطة العقد (٢) .

ومنها أن الحروف التى بنى عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا ، وعدد السور التى افتتح فيها بذكر الحروف ثمان عشرون سورة ، وجملة ما ذكر من

(١) الاسراء : ٨٨

(٢) يريد بهذا أن يدل على جودة نظم القرآن وسمو بلاغته بحيث اذا أخذت منه كلمة واستعملتها فى شعر أو نثر ، فانها تبصير كالدرة فى وسط العقد ، تسترعى الأنظار ، وتدهش العقول ، وتبهج الالباب .

هذه الحروف فى أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة وهو أربعة عشر حرفاً • ليدل بالذكور على غيره ، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التى ينظمون بها كلامهم •

ومنها : أنه سهل سبيله ، خارج عن الوحشى المستكره ، والغريب المستنكر ، وعن الصنعة المتكلفة ، وذلك جعله قريباً من الأفهام ، يبادر معناه لفظه الى القلب ، ويسابق المغزى منه عبارته الى النفس ، •

وهو ذلك ممتنع المطالب ، عسير المتناول ، غير مطمع مع قربته فى نفسه ، ولا موهوم مع دنوه فى موقعه أن يقدر عليه ، أو يظفر به (٢) •

والباقلانى كالرمانى لا يريد اعجاز القرآن الى الناحية البلاغية فحسب وانما يجعل هذه الناحية وجهاً من وجوه اعجازه التى تتلخص عنده فى ثلاثة أمور هى :

الاخبار عن الغيوب ، وأمية الرسول صلى الله عليه وسلم التى تؤكد أنه لم يكن يعرف شيئاً عن كتب الاولين ، وأقاصيصهم ، وسيرهم ، وما تضمنه القرآن من ذلك • ونظمه البديع العجيب •

هذا هو رأى الباقلانى فى اعجاز القرآن ، وقد عرضه بأسلوب جميل فيه رقة الأديب الاريب ، ودقة العالم اللبيب ، فهو حين يحدثك عن نظم القرآن يبهرك أسلوبه ، ويأسرك بيانه ، وتدهشك براعته فى التحليل وقدرته على ايراد الحجج والبراهين وحين يفاضل بين أسلوب القرآن وبين غيره من أساليب العرب تحس أنك أمام أديب قد بلغ القمة فى الفصاحة والبيان ، وعالم متمكن خبير ، لا يعوزه الدليل ، ولا يتأبى عليه التحليل •

وهو يتفق مع الرمانى فى فكرة الاعجاز البلاغى فى القرآن الكريم ، فكلاهما يجعل الناحية البلاغية وجهاً من وجوه الاعجاز فى القرآن الكريم ، الا أنه بسط القول فى هذه الناحية أكثر من الرمانى فبينما نراه يستفيض فى الحديث عن النظم فى القرآن مظهراً محاسنه ومبرزاً أسرارهِ ومستخرجاً دقائقه ، نرى الرمانى ينوّه الى النظم القرآنى تنويهاً ويسميه « نقض العادة » وبينما نرى الباقلانى يستفيض فى الحديث عن الموازنة بين أسلوب القرآن وبين غيره من أساليب العرب ، نرى الرمانى يشغل نفسه بالحديث عن المقارنه بين بعض النواحي البلاغية فى القرآن الكريم وبينها فى أساليب العرب كالمقارنة بين الایجاز فى القرآن الكريم وبينه فى أساليب العرب ، وهذا وان كان عملاً مشكوراً من الرمانى الا أنه لا يصل به الى ما وصل اليه الباقلانى •

وقد لاحظت على الباقلاني أثناء عرضه لرأيه فى اعجاز القرآن الامانة العلمية فهو يعترف بأنه استفاد من دراسات السابقين فى هذا المجال . يستبين هذا من قوله فى صدر كلامه عن الاعجاز : « وقد ذكر أصحابنا وغيرهم » ففى هذه العبارة اعتراف من الباقلاني بأنه استفاد من الدراسات السابقة فى الاعجاز ، وهذا الاعتراف لا يقلل من جهوده فى هذا المجال فهو وان كان قد استفاد من دراسات السابقين الا أننا لا ننكر فضله وجهده فى اخراج هذه الدراسات والكشف عن حقيقة الاعجاز القرآنى وابرازها للعيان بما أقام لها من الشواهد القرآنية والأدبية وبما أضفاه عليها من الرونق والبهجة بحسن بيانه وعميق فهمه .

ثم تحدث عن الاعجاز فى القرآن الكريم « الشريف الرضى » المتوفى سنة ٤٠٦ هـ فى كتابه « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » وان الناظر فى كتابه هذا يرى أنه يرد اعجاز القرآن الى جمال ألفاظه ، وأسلوبه البديع ، ومجازه العجيب ، وقوة تأثيره فى النفس الانسانية ، وكون ألفاظه موحية بمعانيه ، ومعانيه خادمة لأهدافه ومقاصده ، ويستبين هذا من تعليقه على قوله تعالى : **« وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ »** (١) « المعنى أنهم استقروا فى الأوطان » ، وهذا من صميم البلاغة ولباب الفصاحة ، وقد زاد اللفظ المستعار هنا معنى الكلام رونقا ، ألا ترى كم بين قولنا استقروا فى الإيمان ، وبين قولنا تبوؤوا الإيمان » (٢) .

ويستبين أيضا من حديثه المستفيض عن المجاز فى القرآن الكريم ، فقد تناول فى كتابه السالف الذكر المجاز فى القرآن كله ، فكان يعرض لكل سورة من سورة مستخرجا منها الآيات التى فيها مجاز بيانى ، ويكشف عما فيها من وجوه المجاز ، والاستعارة ، والبيان ، موضحا معانى الكلمات ، مستشهدا بالكثير من الأبيات الشعرية والنوادر الابية ، مشيرا الى ما فى الآيات من القراءات القرآنية ، موردا الجم الكثير من الامثال العربية ، حتى ان الناظر فى كتابه يعتبره معجم لغة ، وديوان أدب ، ومجمع نوادر ، وكتاب بلاغة .

ولقد بين كثيرا من غرائب آيات القرآن ، وأوضح طائفة من غوامض أسرارهِ وكشف عن بدائع متشابهاته ، وأبان عن لطائف تأويله ، وعبر عن سر اعجازه فخدم العربية والقرآن وفنون اللغة .

وهو لا يقصد بالمجاز فى القرآن الكريم المجاز اللغوى المصطلح عليه عند

(١) الحشر : ٩

(٢) تلخيص البيان تحقيق محمد عبد الغنى حسن ط . عيسى الحلبي

سنة ١٩٥٥ م ص ١٠٤

علماء البيان ، وانما يطلق كلمة مجاز على معنى أعم يشمل المجاز العقلى واللغوى ، والتشبيه جملة ، ويسببين هذا بعرض بعض المجازات التى أشار إليها فى كتابه ، فمنها أنه أورد قوله تعالى : « وأسأل القرية التى كنا فيها ، والعبر التى أقبلنا فيها » (١) .

وعلق عليه بقوله : « وهذه استعارة ، من مشاهير الاستعارات ، والمراد وأسأل أهل القرية التى كنا فيها ، وأصحاب العبر التى أقبلنا فيها » (٢) وهذه ليست استعارة على طريقة المتأخرين من علماء البيان وانما هى مجاز مرسل علاقته المحلية ، أو ايجاز بالحذف .

كذلك نراه يورد من الشواهد قوله تعالى : « فكيف تنتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا » (٣) ويعلق عليه بقوله : « وهذه استعارة ، والمراد بها أن الولدان الذين هم الاطفال لو جاز أن يشيخوا لرائع خطب أو طارق كرب لشابوا فى ذلك اليوم ، لعظيم أهواله ، وفظاعة أحواله ، وذلك كقول القائل ، قد لقيت من هذا الامر ما تشيب منه كناية عن فظيع ما لا قى ، وعظيم ما قاسى » (٤) .

والاية على طريقة المتأخرين من علماء البيان ليست من قبيل الاستعارة ، وانما هى من قبيل المجاز العقلى من باب استناد الفعل الى زمنه ، وكذلك نراه يورد من الآيات قوله تعالى : « خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » (٥) ويعلق عليه بقوله : « وهذه استعارة » وحقيقة هذا الماء أنه مدفوق لا دافق ، ولكنه خرج على مثل قولهم « سر كاتم ، وليل نائم » (٦) .

والآية ليست من قبيل الاستعارة على طريقة المتأخرين من علماء البيان ، وانما هى كسابقتها من قبيل المجاز العقلى .

هذا ملخص رأى الشريف الرضى فى اعجاز القرآن البلاغى ، وقد عرضه عرضا حسنا ، الا أنه يلاحظ عليه أنه يجعل المجاز وجها من وجوه الاعجاز

(١) يوسف : ٨٢

(٢) تلخيص البيان تحقيق محمد عبد الغنى حسن ط . عيسى الحلبي سنة ١٩٥٥ م ص ٣٥٢

(٣) المزمّل : ١٧

(٤) تلخيص البيان تحقيق محمد عبد الغنى حسن ص ١٧٣ ط . عيسى الحلبي سنة ١٩٥٥ م .

(٥) الطارق : ٥ - ٧

(٦) تلخيص البيان تحقيق محمد عبد الغنى حسن ص ٣٥٢ ط . عيسى الحلبي سنة ١٩٥٥ م .

فى القرآن الكريم ، وهذا أمر لا نوافقه عليه ، لان المجاز فى القرآن ليس محل اتفاق بين العلماء ، فمنهم من أجازة ، ومنهم من أنكره ، والكثيرون من العلماء على انكاره فى القرآن الكريم ، وحتى من أجازة منهم لم يجزه على اطلاقه ، واذا كان كذلك فلا يحسن أن يكون وجها من وجوه الاعجاز فى القرآن الكريم ، اللهم الا اذا أراد من المجاز فى القرآن الكريم الصورة البيانية الشاملة لجميع ألوان البيان العربى كما هو واضح من تعليقه على بعض الآيات التى أوردتها .

ثم تحدث عن الاعجاز فى القرآن الكريم بعد ذلك « الامام عبد القاهر الجرجاني » المتوفى سنة ٤٧١ هـ .

فألف فى الاعجاز فى القرآن الكريم كتابين هما « الرسالة الشافية » (١) و « دلائل الاعجاز » وان الناظر فى هذين الكتابين يرى أن عبد القاهر يرجع الاعجاز فى القرآن الكريم الى نظمه فقط ، فهو الوجه الوحيد عنده الذى من جهته كان الاعجاز فى القرآن الكريم .

وقد صرح بهذا فقال متسائلا : « ماذا أعجز العرب ؟ وعن ماذا عجزوا ؟ » عن معان من دقة معانيه وحسنها وصحتها فى العقول ؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه . ثم يعود عبد القاهر فيجيب عن ذلك بقوله : أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمه ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، ومبادئ راعتهم من مبادئ آية ، ومقاطعها ، ومجارى ألفاظه ، ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة وتنبيه واعلام ، وترغيب فى كل حجة وبرهان ، وصفة بيان ، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة وعشر عشرا ، وآية آية ، فلم يجدوا فى الجميع كلمة يذبو بها مكانها ، ولفظه يذكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح مكانا أو أشبه ، أو أخرى وأخلق ، بل وجدوا اتساقا بهر العقول ، وأعجز الجمهور ، ونظاما والتئاما ، واتقاننا ، واحكاما ، لم يدع فى نفس بليغ منهم ، ولوحك بيافوخة السماء موضع طمع ، حتى خرسن اللسان عن أن تدعى وتقول ، وخلعت القروم فلم تملك أن تصول « (٢) ولما كان النظم هو الوجه الوحيد الذى حصل الاعجاز من جهته عند عبد القاهر فاننا نراه يهتم به اهتماما عظيما ويفصل الكلام فيه فيكشف عن حقيقته ، ويبين مقوماته ، وأصوله ، فيعقد له فصلا خاصا فى كتابه « دلائل الاعجاز » وانما من يقرأ كلامه فى هذا الفصل يدرك أنه يريد بالنظم تلاؤم المعانى فى الكلمات المفردة تلاؤما يساعد على أداء المعنى العام المقصود فى جمال وقوة وأن هذا التلاؤم انما يتم بفضل علم النحو . وفى هذا يقول : « واعلم أن ليس النظم الا أن

(١) طبعت ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ، بتحقيق الدكتورين محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٨ - ٢٩

تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، ونعرف مناهجه التى نهجت ، فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت . فلا تخل بشئ منها « (١) ويقول أيضا : « هذا وأمر النظم فى أنه ليس شيئا ، غير توخى معانى النحو فيما بين الكلم ، وأنت ترتب المعانى أولا فى نفسك ، ثم تحنو على ترتيبها الالفاظ فى نطقك » (٢) .

ثم نراه فى هذا الفصل يفرق بين نظم الحروف ، والكلمات فيقرر أن نظم الحروف إنما يكون بحسب تواليها فى النطق ، ونظم الكلمات إنما يكون بترتيبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس ، وفى هذا يقول : « ان نظم الحروف يأتى بحسب تواليها فى النطق ، وليس نظمها - أى الحروف - بمقتضى عن معنى ، ولا النظم لها بمقتضى فى ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى فى نظمها ما تحراه ، وأما نظم كلم فليس الأمر فيه كذلك ، أى كنظم الحروف لانك تقتفى فى نظمها آثار المعانى ، وترتيبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس ، فهو اذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذى معناه ضم الشئ الى الشئ كيف جاء واتفق . وكذلك كان عذهم نظيرا للنسج والتأليف ، والصياغة ، والبناء ، والوشى ، والتحبير ، وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضى كونه هناك ، وحتى لو وضع فى مكان غيره لم يصلح » (٣) .

ثم يقرر عبد القاهر أن المعانى هى الاساس الذى يجب أن يراعى عند نظم الكلام ، ثم تأتى الالفاظ لتستوعب هذه المعانى . وفى هذا يقول : « وانك اذا فرغت من ترتيب المعانى فى نفسك ، لم تحتج الى أن تستأنف فكرا فى ترتيب الالفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعانى وتابعة لها ولا صقة بها ، وان العلم بمواقع المعنى فى النفس ، علم بمواقع الالفاظ الدالة عليها فى النطق . واعلم أنك اذا راجعت نفسك علمت علما لا يعترضه الشك ألا نظم فى الكلم ، ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب تلك » (٤) .

ونراه فى هذا الفصل أيضا يقرر أنه لا سبيل للوصول الى معرفة وجه الاعجاز فى القرآن الا باستقراء كلام العرب ، واتباع أشعارهم ، ودراستها دراسة نقدية ، وفى هذا يقول : « وصح ألا غنى بالعاقل عن معرفة هذه

(١) دلائل الاعجاز ص ٥٥

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٤ .

(٣) دلائل الاعجاز ص ٣٥

(٤) المصدر نفسه ص ٣٨

الوجوه ، والوقوف عليها ، والاحاطة بها ، وأن الجهة التى منها يقف ، والسبب الذى به يعرف استقراء كلام العرب ، وتتبع أشعارهم ، والنظر فيها » .

ثم طبق الجرجانى ما دعا اليه ، فعقد موازنات بين الشعراء الذين تناولوا موضوعا معينا ، وذلك فى كتابيه « دلائل الاعجاز » و « الرسالة الشافية » (١) .

ثم يطلب عبد القاهر من الباحث عن الاعجاز فى القرآن الكريم أن يكده ، ويطلب بنفسه المزايا والخصائص التى امتاز بها نظم القرآن الكريم ، ليقف عليها ، لا أن يقلد فى ذلك ، فيجرى وراء من سبقه فى هذا الباب فيقول بعد أن يذكر طرفا من خصائص ومزايا نظم القرآن الكريم :

« فبنا أن ننظر أى شىء أشبه بالفتى فى عقله ودينه ، وأزيد له فى عمله ، ويقينه ، أن يقلد فى ذلك ؟ ، ويحفظ متن الدليل ، وظاهر لفظه ، ولا يبحث عن تفسير المزايا والخصائص ما هى ؟ ومن أين كثرت الكثرة العظيمة ، واتسعت الاتساع المجاوز لوسع الخلق ، وطاقة البشر ؟ وكيف يكون أن تظهر ألفاظ محصورة ، وكلم معدودة معلومة ؟ ، بأن يؤتى ببعضها فى أثر بعض ، لطائف لا يحصرها العدد ، ولا ينتهى بها الامد ، أم أن يبحث عن ذلك كله ، ويستقصى النظر فى جميعه ، ويتتبعه شيئا فشيئا ، ويستقصيه بابا فبابا . حتى يعرف كلا منها بشاهده ودليله ، ويعلمه بتفسيره ، وتأويله ويوثق بتصويره وتمثيله لا كمن قيل فيه :

يقولون أقوالا ولا يعلمونها

ولو قيل هاتوا حقوا لم يحققوا (٢)

هذا هو رأى عبد القاهر فى اعجاز القرآن وملخصه أن اعجاز القرآن يعتمد على النظم ، والتأليف . والنظم عنده ليس تأليف الحروف والكلمات كل بحسب مخارجها وانما النظم عند الجرجانى هو ترتيب المعانى أولا ثم تأتى الالفاظ لتستوعب هذه المعانى ، والنظم هذا لابد أن يخضع لقواعد النحو وأصوله .

ولم يكن عبد القاهر أول من جعل النظم وجها لاعجاز القرآن ، وانما هو مسبوق بذلك ، فقد سبقه اليه الاصفهانى فقد قال فى تفسيره فى معرض كلامه عن الاعجاز « فظهر من هذا أن الاعجاز المختص بالقرآن يتعلق بالنظم المخصوص . وبيان كون النظم معجزا يتوقف على بيان نظم الكلام . ثم بيان

(١) الرسالة الشافية ص ١٢٦ - ١٢٧ من كتاب ثلاث رسائل فى اعجاز

القرآن ، ودلائل الاعجاز ص ٣٤

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٩ والبيت لأنس بن أنيس « الكامل للمبرد

ج ١ ص ٣١٦ هـ . نهضة مصر » .

أن هذا النظم مخالف لنظم ما عداه (١) . ثم يقسم الاصفهاني الكلام الى خمس مراتب ويقصد بها أنواع الكلام من حيث المنظوم والمنثور ، والمسجوع ، والمحاور ، والرسالة ، وغير ذلك فيقول : « القرآن جامع لمحاسن الجميع على نظم غير نظم شيء منها . يدل على ذلك أنه لا يصح أن يقال له : رسالة أو خطابة ، أو شعر ، أو سجع ، كما يصح أن يقال : هو كلام . والبلغ اذا قرع سمعه فصل بينه وبين ما عداه من النظم ، ولهذا قال تعالى : « **انه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الا بطل من بين يديه ولا من خلفه** » (٢) تنبيها على أن تأليفه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشر ، فيمكن أن يغير بالزيادة والنقصان كحالة الكتب الاخرى » (٣) .

وسبقه اليه أيضا « الرماني » و « الباقلاني » كما رأينا . الا أن عبد القاهر وان كان يتفق معهما في فكرة الاعجاز الا أنه يختلف عنهما في أنه جعل النظم الوجه الوحيد لاعجاز القرآن ورفض جميع ما عداه من الوجوه أما هما فقد جعلتا النظم وجهها من وجوه الاعجاز وعبد القاهر وان كان مسدوقا بهذا الوجه - أعنى النظم « الا أن دراسته له كانت أوسع وأشمل وأعمق من دراسة السابقين له ، فقد توسع في الكلام عنه ، فقدم لنا بحثا بلاغية قيمة ، وفتح آفاقا جديدة في دراسة الاسلوب تعتمد على الذوق الفني ، والنقد العلمي ، لا على التقليد .

ثم تحدث عن الاعجاز في القرآن الكريم بعد عبد القادر الجرجاني « ابن أبي الاصبع المصري » المتوفى سنة ٦٥٤ هـ فقد ألف في اعجاز القرآن كتابين هما : « البرهان في اعجاز القرآن » و « بديع القرآن » والثاني تنمة للاول كما أشار الى ذلك في مقدمة كتابه فقال : « كتاب بديع القرآن الذي هو تنمة للاعجاز المترجم « ببيان البرهان » أفردته من كتاب هو وظيفة عمرى (٤) ويقصد بالكتاب « تحرير التحرير » لانه هو الذي اختصر منه « بديع القرآن » وكتابه « البرهان » من الكتب المفقودة التي لم تصل اليها أيدي الباحثين بعد ، اذن فليس لدينا من المصادر ما نعتمد عليه في الكشف عن رأيه في الاعجاز سوى كتابه « بديع القرآن » وان الباحث اذا أنعم النظر في هذا الكتاب ، يتضح له أن ابن أبي الاصبع يرجع السرفى اعجاز القرآن الكريم الى ما اشتمل عليه أسلوبه من الحلى البديعية البعيدة عن التكلف ، والتعمل ، والصنعة ، أو بعبارة أدق الى النظم البديعى البرئى من التكلف والصنعة ، فهو يرى أن نظم القرآن البديعى دونه كل نظم ، وأنه امتاز بميزات وخصائص

(١) الاتقان للسيوطى ج ٢ ص ١٢٠

(٢) فصلت : من الآية : ٤١ ، ٤٢

(٣) الاتقان للسيوطى ج ٢ ص ١١٩ - ١٢٠

(٤) بديع القرآن ص ٣ تحقيق المرحوم الدكتور حنفى شرف

لا يوجد لها مثيل فى كلام صفوة البشر من البلغاء ، والادباء ، ودهاقين الكلام ، وأنهم لا يستطيعون الاتبان بمثل نظم القرآن حتى يلج الجمل فى سم الخياط ، فهذا النظم قد حوى صفات الادب الخالدة ، ومميزاته النفسية فالقرآن اذا تحدث حرك المشاعر ، وهز العواطف ، وأسأل الدموع من العيون ووصل معناه الى قلبك ، قبل أن يصل لفظه الى أذنك ، واذا صور أذهل العقول ، وأتى بالعجب العجائب ، وجسم المعانى ، فسهل على البشر ادراكها ، واستمع اليه حين يصور الندم وعذاب الضمير فيقول : « يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله » ويقول : « ويوم يعض الظالم على يديه ، يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلى ليتنى لم اتخذ فلانا ذاتيلا ، لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى ، وكان الشيطان للإنسان خذولا » (١) ، واستمع اليه حين يصور لك النار وعذابها فيقول : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت ، ونقول هل من مزيد » (٢) ويقول : « اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا » (٣) ويقول : « تكاد تهمز من الغيظ » ، واستمع اليه حين يصور لك موقف الاحتضار ، وما يدور بخلد المحتضر من الفراق ، والتفاف الأهل والاحبة حوله فيقول : « كلا اذا بلغت التراقي ، وقيل من راق ، وظن أنه الفراق ، والنفت المساق بالساق الى ربك يومئذ المساق » (٥) واستمع اليه حين يصف ، فيستقصى جميع الصفات والجوانب فيقول : « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب ، تجري من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات ، وأصابه أكبر ، وله ذرية ضعفاء ، فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت » (٦) .

الى غير ذلك من الصور التى يقف أمامها أساطين البيان مذهولين ، متعجبين عاجزين .

من أجل ذلك اهتم ابن أبى الاصبع ببديع القرآن ، فغاص فى بحار القرآن الكريم باحثا ومنقبا عن جواهره ، ولآلئه ، كاشفا عن روعتها وسحرها ، موضحا أثرها فى نظمه ، وما تضيفه على أسلوبه من الحسن والجمال ، وعلى معناه من القوة التى تسيطر على النفس الانسانية ، وتستولى على أحاسيسها ومشاعرها ، ولقد فتن بذلك ، حتى استطاع أن يستخرج الجم الكثير من الألوان البديعية من القليل من الالفاظ القرآنية ، ولم يكتف باستخراج هذه

(١) الفرقان : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨

(٢) ق : ٢٩

(٣) الفرقان : ١١

(٤) الملك : ٧

(٥) القيامة : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨

(٦) البقرة : ٢٦٥ ، ٢٦٦

الألوان ، بل قارن بين النظم البديعى فى القرآن ، والنظم البديعى فى كلام العرب ، ليثبت لنا الاعجاز فى القرآن الكريم ، عن طريق هذا النظم البديعى الذى فاق كل نظم ، ومن غوصه على البديع فى القرآن ما ذكره فى باب «الابداع» فقد أتى بقوله تعالى : « **وقيل يا أرض ابلعى داءك ، ويا سماء أألقى ، وغيص الماء ، وقضى الامر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين** » (١).

واستخرج من هذه الآية الكريمة التى يبلغ عدد ألفاظها سبع عشرة لفظة أحدا وعشرين ضربا من البديع وبينها فقال : « وتفصيل ما جاء فيها من البديع « المناسبة التامة » فى « ابلعى ، وألقى » « والمطابقة اللفظية » فى ذكر السماء والارض « والاستعارة » فى قوله : « ابلعى ، وألقى » للارض والسماء ، « والمجاز » فى قوله : « يا سماء » فان الحقيقة « ويا مطر السماء ألقى » « والإشارة » فى قوله : « وغيص الماء » فانه سبحانه عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة ، لان الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء ، وتبلغ الأرض ما يخرج من عيون الماء ، فينقص الحاصل على وجه الارض ، من الماء « والارداف » فى قوله « واستوت على الجودى » فانه عبر عن استقرار السفينة على هذا المكان ، وجلسها جئوسا متمكنا ، لا زبغ فيه ، ولا ميل ، لطمأنينة أهل السفينة بلفظ قريب ، من لفظ الحقيقة ، « والتشثيل » فى قوله « وقضى الامر » فانه عبر بذلك عن هلاك الهالكين ، ونجاة الناجين بلفظ فيه بعد ما من لفظ الحقيقة بالنسبة الى لفظ الارداف ، والتعليل ، لأن غيض الماء علة الاستواء ، « وصحة التقسيم » حيث استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حالة نقصه ، اذ ليس الا احتباس ماء السماء ، واحتقان الماء الذى ينبع من الارض ، وغيض الماء احاصل على ظهر الارض ، « والاحتباس » فى قوله : « وقيل بعدا للقوم الظالمين » محترسا من توهم من يتوهم أن الهلاك ربما عم من لا يستحق الهلاك ، فجاء سبحانه بالدعاء على الهالكين ليعلم أنهم مستحقوا الهلاك ، فان عدله منع أن يدعوا على غير مستحق للدعاء عليه .

« والانفصال » فان لقائل أن يقول : ان لفظة « القوم » مستغنى عنها ، فانه لو قيل : « وقيل بعدا للظالمين » لثم الكلام ، والانفصال عن ذلك ، أن يقال : لما سبق فى صدر الكلام قبل الآية قوله : « وكلما مر عليه ملا من قومه سخرؤا منه » وقال سبحانه قبل ذاك مخاطبا لنوح عليه السلام « ولا تخاطبنى فم الذين ظلموا انهم مغرقون » فاقتضت البلاغة أن يؤتى بلفظة القوم التى آلة التعريف فيها للعهد ، ليتبين أنهم القوم الذين تقدم ذكرهم نى قوله ، « وكلما مر عليه ملا من قومه » ووصفهم بالظلم ، وأخبر بسابق علمه أنهم هالكون ، بقوله : « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون » .

فحصل الانفصال عن الاشكال ، وعلم أن لفظه « القوم » ليست فضلة في الكلام . « والمساواة » لان لفظ الآية لا يزيد على معناه ، ولا ينقص عنه . « وحسن النسق » في عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولا فأولا ، فانه سبحانه أمر الارض بالابتلاع ، ثم عطف على ذلك أمر السماء بالاقلاع ، ثم عطف غيص الماء على ذلك ، ثم عطف على ذلك استواء السفينة على الجوى ، ثم عطف على ذلك الدعاء على الهالكين ، فجاء عطف هذم الجمل على ترتيب وقوعها في الوجود ، « وائتلاف اللفظ مع المعنى » لكون كل لفظة لا يصلح في موضعها غيرها « والايجاز » لانه سبحانه قص القصة بلفظها مستوعبة بحيث لم يخل منها بشيء في أخصر عبارة بألفاظ غر مطولة « والتسليم » لان من أول الآية الى قوله تعالى : « اقلعي » يقتضى آخرها . « والتعذيب » لان مفردات الالفاظ موصوفة بصفات الحسن ، كل لفظة سهلة مخارج الحروف ، عليها رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة ، والتركيب سليم من التعقيد ، وأسبابه . . .

« وحسن البيان » من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه .

« والتمكين » لان الفاصلة مستقرة في قرارها ، غير قلقة ولا مستدعاة . « والانسجام » وهو تحدر الكلام بسهولة ، وعذوبة سبك مع جزالة لفظ . « والابداع » اذ في كل لفظة بديع وبديعان . . ثم بعد أن بين ما في الآية الكريمة من ألوان البديع علق عليها بقوله :

« فانظر رحمك الله الى عظمة هذا الكلام ، وما انطوى عليه نظمه ، وما تضمنه لفظه لتقديره قدره » (١) .

ومن غوصه على بديع القرآن ما ذكره في باب « صحة المقابلات » فانه أتى بقوله تعالى « ومن رحمته أن جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله » (٢) ثم استخرج من بعض هذه الآية كثيرا من الالوان البديعية ، ووضح أثرها في النظم ، وهذه الالوان هي : « المطابقة » بين الليل والنهار ، والسكون ، وايتغاء الفضل ، و « التعليل » في قوله سبحانه « لتسكنوا ، ولتبتغوا » . « والارداف » في قوله « ولتبتغوا من فضله » فلفظ الحقيقة « ولتتركوا » لكن القرآن عدل عنه الى لفظ هو ردفه ، وتابعه وهو « ولتبتغوا من فضله » . ثم بين السبب في عدول القرآن عن لفظ الحقيقة

(١) بديع القرآن ص ٣٤٠ - ٣٤٣ تحقيق المرجوم الدكتور حنفى شرف .

(٢) القصص : ٧٣ .

إلى الاراداف فقال : « والذى أوجب العدول عن لفظ الحركة الى « ابتغاء الفضل » كون الحركة لمصلحة ، ولمفسدة ، وابتغاء الفضل حركة للمصلحة دون المفسدة ، والآية سيقنت للاعتداد بالنعم فوجب العدول عن لفظ الحركة الى لفظ هو ردفه وتابعه ، ليتم حسن البيان . « وحسن البيان لمجيء الكلام فيها متلاحما آخذة أعناق بعضها ببعض . « وحسن النسق » فالجمل قد عطف بعضها على بعض بأحسن ترتيب « والاشارة » لأن القول الكريم على قلة فلفاظه قد أشار ، والمج الى كثير من المنافع ، والمصالح « والاتتلاف » فالفاظ القول الكريم مؤتلفة مع معناه أتم اتتلاف وأحسنه « (١) » .

وفى باب « صحة التفسير » يسوق قوله تعالى : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها وما تنبت الأرض ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون » (٢) ثم يقف أما النص الكريم متأملا ، مفكرا ، معجبا ، ثم يغوص فى قاعة ، فيستخرج لنا من اللالى البديعية ما يبهر ، ويعجز فيقول : « فأتت صحة التفسير فى هذه الآية مقترنة بصحة التقسيم ، واندمج فيهما الترتيب ، والتعذيب ، وحصل الاتتلاف بحصول الترتيب ، اذ قدم سبحانه النبات ، وانتقل على طريق البلاغة المرضي فى النظم الى الأعلى ، فثضى بأشرف الحيوان ، ليستلزم ذكره بقية الحيوان ، ثم ثلث بقوله : « ومما لا يعلمون » فانتقل من الخصوص الى العموم ، ليدخل تحت هذا العموم كلما اختص الخالق سبحانه وتعالى بعمله من المولدات الثلاث من مجهول النبات ، والحيوانات ، والجمادات ، وسائر المخلوقات ، من كل موجود سواء سبحانه ، فحصل الترقى فى النظم على سنن الفصاحة ، والمشى على نهج البلاغة ، وأتت الفاصلة فى غاية التمكن « (٣) » .

وفى باب « صحة التفسير » أيضا يسوق من الشواهد قوله تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم يمشى على أربع » (٤) .

ثم يسرد ما اشتمل عليه النص الكريم من الالوان البديعية ، ويستفيض فى شرحها ، موضحا أثرها فى النظم ، فيقول : « فذكر سبحانه الجنس الأعلى ، مقدما له حيث قال : « كل دابة » فاستغرق أجناس كل ما دب ، ودرج ، ثم فسر هذا الجنس الأعلى بالاجناس المتوسطة والانواع حيث قال : « فمنهم » و « منهم » مراعى الترتيب ، اذ قدم ما يمشى بغير آلة لكون الآية مسيقت لبيان القدرة ، والتمجد بها ، وتعجب السامع منها ، وما يمشى بغير آلة

(١) بدیع القرآن ص ٧٣ - ٧٤ تحقیق المرحوم الدكتور حنفى شرف .

(٢) یس : ٣٦

(٣) بدیع القرآن ص ٧٦ - ٧٧ تحقیق المرحوم حنفى شرف .

(٤) النور : ٤٥

أعجب مما يمشى بالة فلذلك اقتضت البلاغة تقديمه ، ثم ثنى بالافضل فالافضل ، فأتى بما يمشى على رجلين ، وهو الانسان والطائر ، لتمام خلق الانسان ، وكمال حسن صورته ، وهيئته المقتضية تخصيصه بالعقل ولما فى الطائر من عجب الطيران فى الهواء ، الدال على غاية الخفة ، ونهاية اللطف ، مع ما فيه من كثافة الارضية ، وثالث بما يمشى على الاربع لانه أحسن الحيوان ، وأقواه ، تغليبا له على ما يمشى على أكثر من الاربع ، من الحشرات ، فاستوعب جميع الاقسام ، وأحسن الترتيب قارنا للتقسيم والترتيب فى صحة التفسير ، الى ما تضمنت هذه الكلمات التى هى بعض آية من الاشارة والائتلاف « وحسن البيان » (١) .

وفى باب « الايضاح » يسوق من الشواهد قوله تعالى : « وان يقاتلوكم بولوكم الإِدْبَارَ ثم لا يَنْصُرُونَ » ثم يستخرج منه على قلة ألفاظه ستة عشر ضربا من البديع ، بل يستخرج لنا من حرف واحد من النص الكريم هو « ثم » ثمانية أضرب من البديع ، ثم يوضحها أتم توضيح فيقول :

« فتضمنت هذه اللفظات السبع ستة عشر ضربا من البديع ، وهى التعليق ، والمطابقة المعنوية والاحتراس ، والتكميل ، والتنكيث ، والمقارنة ، والايضاح ، والادماج ، والترشيح ، والايغال ، والايجاز ، والافتتان ، وحسن النسق ، والتهذيب ، وحسن البيان ، والمثل السائر . وأعجب ما وقع فيها أن حرفا واحدا منها وقع فيه على انفراده من ذلك ثمانية أضرب ، والحرف لفظة « ثم » وقع فيها الاحتراس ، والتنكيث ، والمقارنة ، والايضاح ، والادماج ، والتكميل ، وحسن النسق ، والترشيح ، توجد هذه الضروب بوجودها وتنعدم بعدمها ، وبيان ذلك انا لو قدرنا موضعها الواو سقط ذلك كله ، ثم أخذ فى تفصيل الالوان البديعية التى اشتملت عليها الآية فقال : « فأما تفصيل هـ جاء من المحاسن فى جملة الآية « فالايضاح » منها فى عطف آخر الكلام على أوله ، ب « ثم » لتحصل الفائدة التى شرحناها ، ولأجلها أتى بالآية ، وهى تبشير المؤمنين بأن عدوهم مخذول أبدا و « الادماج » وهو ادماج التكميل فى الايضاح ، فان لفظ الايضاح ظاهر والتكميل مدجج فيه ، لا يظهر الا بعد التفسير ، وكذلك الاحتراس ، فان الكلام الآخر لو عطف على الاول بالواو لظن من لا يجب أن يتسرع الى الموت ، انما وعدوا بالنصر فى تلك الحالة لا غير ، ويحتمل أن ينصر العدو بعد هذه ، لان الحرب أكثر ما يقع سجلا ، فيكون ذلك موجبا لعوده عن القتال ، بعدها فأتى بالجملة الثانية معطوفة ب « ثم » ، ليحترس بها من ذلك . و « التنكيث » وهو النكتة التى رجحت العطف ب « ثم » دون بقية حروف العطف ، لما يقتضى من المهلة الملائمة ، لما يدل عليه الفعل المضارع من الاستقبال لتكميل المعنى المراد ، وأما التعليق ،

وهو تعليق الوعيد بالوعد فانها تضمنت وعد المؤمنين بالنصر ، ووعيد الكافرين بالخذلان ، وأما المطابقة المعنوية فلجمع الكلام بين الوعد والوعيد بغير لفظهما ، وأما المقارنة فلاقتران الاقتنان الذى دل عليه الوعد والوعيد ، والمدح والهجاء بالمطابقة ، وأما الايغال فلان معنى الكلام تم عند قوله : « يولوكم الادبار » ولما احتاج الكلام الى فاصلة توافى بقية فواصل الآى أفادها معنى زائدا يكمل معنى الكلام التام ، وأما الترشيح فهو ترشيح « ثم » لمجئ الفعل الثانى الذى عطف بها على الاول دال على الاستقبال ، وأما الايجاز فلدلالة هذه الالفاظ السبع على ما دلت عليه من معانى النفس ، ومعانى البديع ، وأما الاقتنان فاشارة الوعد والوعيد والوعيد الى أن من سبق لهم الوعد أهل للمدح ، ومن سبق لهم الوعيد أهل للذم ، وأما حسن النسق ، ففي اختيار العطف بـ « ثم » دون حروف النسق وأما التهذيب ففي تقديم ما يجب تقديمه من الوعد فى حال المقابلة ، وتأخير ما يجب تأخيره من الوعد والوعيد بعد ذلك فى الاستقبال ، وملاءمة العطف بـ « ثم » للمعطوف حيث كان صيغته صيغة المضارع الدال على الاستقبال ، وأما حسن البيان فلاينتتها عن بشاره المؤمنين بما يثبت قلوبهم ، ويثلج صدورهم ، ويحرضهم على قتل المشركين « أبدا بأرشق عبارة دلت على المعنى المراد ، وأوصلته الى الانهام بأثرى الطرق ، وأسهلها ، وأما المثل السائر فلخروج الكلام فيها مخرج مثل يليق بكل واقعة تشبه واقعتها (١) .

وفى باب « جمع المختلفة والمؤتلفة » يورد شواهد من القرآن ، ومن الشعر ثم يوازن بين النظم البديعى القرآنى ، والنظم البديعى الشعرى ، ثم يفضل نظم القرآن لجودة بديعة ، وكثرته ، ومن ذلك موازنته بين قول الخنساء فى أخيها صخر ، وقد أرادت مساواته فى الفضل بأبيها مع مراعاة حق الوالد بزيادة فضل لا ينقص بها مدح الولد فقالت :

جارى أباه فأقبلا وهما	يتعاوران ملاءة الحضر
وهما وقد برزا كأنهما	صقران قد خطا الى وكر
حتى اذا نزت القلوب وقد	لزت هناك العذر بالعذر (٢)
وعلا هتاف الناس أيهما	قال المجيب هناك لا أدرى
برقت صحيفة وجه والده	ومضى على غلوائه يجرى
أولى فأولى أن يساويه	لولا جلال السن والكبر

وقوله سبحانه وتعالى : « وداود وسليمان اذ يحكما فى الحرث اذ نفست فيه غم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما ،

(١) بديع القرآن ص ٢٦١ - ٢٦٥ تحقيق المرحوم الدكتور حنفى شرف [٠

(٢) العذر : جمع عذار وهو السير الذى يكون على خد الدابة من اللجام [٠

وعلمنا (١) وملخص الموازنة أن قول الخنساء والنص الكريم اشتركا في أن كليهما فيه مساواة للولد بالوالد في الفضل ، ثم ترجيح اولد ثم الرجوع الى المساواة بينهما مراعاة لحق الوالد ، الا أن النص الكريم فاق قول الخنساء وبيان ذلك كما أشار اليه ابن أبي الاصبع نفسه أن لخنساء قد سوت بين أخيها وأبيها بقولها :

وهما وقد برزا كأنهما صقران قد حطا الى وكر
حتى اذا نزلت القلوب وقد لزت هناك العذر بالعدر

وهي تريد بذلك أن عذر اللحم لز بعضها بعضا ، وهذا يدل على المساواة في العدو ثم قالت في ترجيح الوالد : « برقت صحيفة وجه والده » تعنى أنه خرج وجهه من الغبار دون وجه رسيطة سبكا ، ثم قالت في الحاق الولد بالوالد في الفضل :

أولى فأولى أن يساويه لولا جلال السن والكبر

تريد أن الولد كان قادرا على مساواة الوالد ، وما أولاه بذلك لولا ما التزمه من الأدب مع بر أبيه ومعرفته بحقه فغض من عنانه ، وخفض جناح فضله ليؤثر أباه بالفضل على نفسه وأما الآية الكريمة ، فقد ساوت بين داود وسليمان في التأمل للحكم ، وشركت بينهما فيه حيث قالت : « اذ يحكمان في الحرث » ثم فضلت سليمان فقالت : « ففهمناها سليمان » ثم رجعت الى المساواة بعد الترجيح فقالت : « وكلا آتينا حكما » مراعاة لحق الوالد فقام حق الأبوة مقام الفضيلة التي اختص بها سليمان فحصلت المساواة ، الا أن الآية الكريمة فاقت قول الخنساء : لا شتمالها على ضرب من المحاسن البديعية خلا منها قول الخنساء ، ومن هذه المحاسن « الالتفاف » في قوله تعالى : « وكنا لحكمهم شاهدين » و « التنكيت » فان النكتة التي من أجلها جمع الضمير الذي كان من حقه أن يكون مثنى هي الإشارة الى أن هذا الحكم متبع يجب الاقتداء به لانه عين الحق ، ونفس العدل ، وكيف لا يكون ذلك ، وقد أخبر سبحانه أنه له شاهد أى هو مراعى بعينه عز وجل و « الادماج » لان التنكيت قد أدمج في الالتفات (٢) وأنا أزيد على ابن أبي الاصبع في المفاضلة جزالة الالفاظ القرآنية ، وعذوبتها ، وحسن سبكها ، وسهولتها ، وحلاوة جرسها ، ونغمة موسيقاها ، وإيمانها بمعانيها .

(١) الانبياء : ٧٨ : ٧٩

(٢) بديع القرآن ص ١٣١ - ١٣٢ تحقيق المرحوم الدكتور حنفى شرف ،
وتحرير التعبير ص ٣٤٧ - ٣٤٨ تحقيق المرحوم الدكتور حنفى شرف .

وفى باب « التذييل » يسوق من الشواهد قول المتنبي :
تمس الامانى صرعى دون مبلغة فما يقول لشيء ليت ذلك لى
وقال ابن نباته السعدى :

لم يبق جودك لى شيئا أومله تركتني أصحاب الدنيا بلا أمل.
ويوازن بينهما ، وبين قوله تعالى : « **وله كل شيء** » (١) •

ووجه الموازنة أن كلا من الشاعرين قد بالغ فى مدح ممدوحه ، والنص
الكريم فاقهما فى المبالغة لعمومه ، فيقول : « فان لفظه « كل » تستغرق جميع
الاشياء التى يقع واحدها على البسيط ، والمركب ، والقديم ، والحديث ،
والخالق ، والمخلوق ، وان كان وقوعها ها هنا على كل موجود سوى الله تعالى ،
وكل معدوم ممكن الوجود » (٢) •

وفى باب « صحة الاقسام » يوازن بين نظم القرآن ، وبين نظم محمود
كلام العرب ، فيذكر قوله تعالى : « **الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ،
وما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك ،
وبالآخرة هم يوقنون** » (٣) •

ثم يبين ما اشتمل عليه القول الكريم من ضروب البديع ، ثم يوازن بينه ،
وبين قول زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عم (٤)

فيقول : « أما الآية الاولى فقد استوعبت جميع الاصناف الحمودة ،
اذ وصف المؤمنون فيها بجميع العبادات ، لان العبادات كلها نوعان : بدنية ،
ومالية ، والبدنية قسمان : عبادة الباطن ، وعبادة الظاهر ، والمالية أيضا
قسمان : ما يشترك فيه المال والبدن ، كالحج ، والجهاد ، وما ينفرد به المال
كالزكاة ، وصدقة التطوع على اختلاف أصنافها فقوله تعالى : « **يؤمنون**
بالغيب » اشارة الى عبادة الباطن ، لان الايمان التصديق ، وهو من أعمال

(١) النحل : ٩

(٢) بديع القرآن ص ١٥٧ تحقيق المرحوم الدكتور حفنى شرف •

(٣) البقرة : ٣ - ٤

(٤) ديوانه ص ٢٩ طبع دار الكتب •

القلب ، وقوله سبحانه : « ويقيمون الصلاة » تصريح بعبادة الظاهر وقوله عز وجل : « ومما رزقناهم ينفقون » اشارة الى العبادة المالية ، فاستوعبت جميع الاقسام على الترتيب حيث قدم عبادة الباطن على عبادة الظاهر ، وعبادة البدن على عبادة المال مع وصفه سبحانه لهم بالانزاهة عن جميع أوصاف الكسب المذمومة من الخيانة والسرقة ، والربا ، والغصب ، وجميع أنواع الظلم ، اذ أضاف عز وجل رزقهم لنفسه ، ليشير الى أنه الحلال الطيب لانه لا يضاف الى الله سبحانه من الرزق الا الحلال ، وأن الحرام من كسب العبد ، وأن كسبه ذلك بقضاء الله وقدره على المذهب الصحيح ، لكنه لا تجوز اضافته الى الله سبحانه ، أبا معه عز وجل وأما الآية الثانية فقد استوعبت أقسام الزمان فى قوله تعالى : « والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون » فان ايمان هؤلاء المؤمنين بما أنزل الى الرسول صلى الله عليه وسلم ايمان فى الحال ، وبما أنزل من قبله ايمان فى الماضى ، وايمانهم بالأخرة ايمان فى المستقبل ، ثم زاد ايمانهم بالأخرة وصفا اذا أخبر أنه ايمان متيقن ليدل بذلك على قوة تصديقهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، ووثوقهم بأن ما أخبر بوقوعه سيقع يقينا لا شك فيه ، ولا شبهة فحصل فى هذه الآية مع نهاية المدح صحة الاقسام فى اللفظ والمبالغة فى معنى المدح والايغال فى الفاصلة زاد بها المعنى زيادة ما حصلت الا بها « (١) » .

ثم بعد أن أوضح ما اشتملت عليه الآية الكريمة من جواهر البديع ، ولآله وازن بينها ، وبين قول زهير :

فقال : « واذا نظرت بين معنى هذه الآية التى عدتها اثنتا عشرة لفظة ، وبين قول زهير ، وهو أجل بيت جاءت فيه صحة التقسيم وأبلغه ، علمت مقدار ما بين البلاغتين ، وذلك أن عدة البيت ثلاث عشرة لفظة ، وفيه من زيادة اللفظ التى لم يؤت بها الا لأجل الوزن والقافية لفظتان ، فان ملخص معنى عجز البيت كله أن يقول : « ولا أعلم ما فى الغد » فاضطره الوزن والقافية الى أن قال ما قال ، والحظ كم بين قافية البيت وفاصلة الآية وما تضمنته الآية من مدح المؤمنين فى الازمنة الثلاثة ، وما فى اجماع ذلك المدح من الاشارة الى الايمان بجميع كتب الله التى أنزلها ، وجميع رسله التى أرسلها ، وبما سيكون من أمر البعث وبما نطقت به الكتب من جميع ما فيه من الحساب والمسائلة ، والصراط ، والميزان ، والجنة ، والنار ، وجميع أصناف الثواب والعقاب ، وتفاصيل هذه الجملة التى لو عددت معانيها بألفاظها الموضوعة لها ملات الاكوان ، وكانت كما أخبر عنها الرحمن بقوله تعالى : « ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات

الله (١) وأين يقع البيت من الآية ، فان بينهما من البعد ما بين المتكلم بهما (٢) .

وفى باب « تجاهل العارف » يذكر من الشواهد القرآنية قوله تعالى : **« ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم »** (٣) . ثم بين أن التشبيه فى الآية الكريمة فاق تشبيه العرب ، والفضل فى ذلك يرجع الى النظم البديعى للآية الكريمة فيقول : « فجاء هذا اللفظ فى الآية متجاوزا تشبيه العرب كل من راعهم حسنة من البشر بالجن الى تشبيه يوسف صلوات الله وسلامه عليه حين كان حسنه رائعا ، وله مع الروعة نور وطلاقة ، وعليه سكينه ، تؤمن ناظره من تلك الروعة ، وتثبت قلبه ، لما يسرى اليه من سكينه ، فكان كذلك تشبيهه بالملك الكريم أصح وأوقع ، وأشد مطابقة من أكثر الجهلت » (٤) .

وفى باب « التَنْظِير » نراه يوازن بين قول يزيد بن الحكم (١) الثقى من شعراء الحماسة :

يا بدر والأمثال يضمد	ربها لذى اللب الحكيم
دم للخيال بسوده	ما خير ود لا يـدوم
واعرف لجارك حقه	والحق يعرفه الكريم
واعلم بأن الضيف يو	ما سوف يحمد أو يلوم

وبين قوله تعالى : **« وبذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب وابن السبيل ، وما هـأكت أيما نكم »** (٦) .

وملخص الموازنة كما ذكر هو نفسه ، أن النص الكريم ، فاق النص الشعري بنظمه البديعى ، ذلك أن الآية حصل فى نظمها ألوان من البديع خلا منها النص الشعري منها : « صحة التقسيم » لاستيفائها جميع أقسام من تجب الوصية به ، والاحسان اليه . « والايجاز » و « المساواة » لكون لفظها طبق معناه . و « التهذيب » لما وقع فيها من حسن الترتيب ، اذ بدأ سبحانه بذى القربى ، وعطف عليهم اليتامى ، لما يجب من تقديمهم على المساكين ، وعطف الجار ذى القربى مقدا ذكره على المساكين ، وأفرده بالذكر بعد دخوله

(١) لقمان : ٢٧

(٢) بديع القرآن ص ٧١ تحقيق المرحوم الدكتور حنفى شرف .

(٣) يوسف : ٣١

(٤) بديع القرآن ص ٥١ تحقيق المرحوم الدكتور حنفى شرف .

(٥) الحماسة : شرح التبريزى ص ٢٢٩ طبع أوربا .

(٦) النساء : ٣٦

دفعى عموم المساكين لينبذ على العناية به ، وعطف عليه الجار الجنب أى صاحب ، وقدمه على صاحب المجاور فى السفر والحضر ، وعطف على ذلك ابن السبيل ، ووختم الوصية بحسن الملكة « (١) » .

وهذه الامثلة التى ذكرتها غيض من فيض مما يزخر به كتابه « بديع القرآن » من الحديث عن النظم القرآنى ، والغوص وراء الحلى البديعية التى اليها يرجع السرفى اعجاز القرآن الكريم وابن أبى الاصبغ لا يحصر السرفى اعجاز القرآن فى نظمه البديعى بل هو يرى أنه بليغ بالفاظه وأسلوبه ، وتراكيبه ، وأثره فى النفوس ، ويزيد على ذلك كله أنه معجز كذلك بما فيه من التراكيب البديعية التى يعرفها العرب ، والمتكلمون بالعربية ، ويسمون صاحبها بالبليغ أو البديعى ، ولذلك فقد اهتم بهذه الانواع البديعية ، ومثل لها بايات من القرآن ، وخرج هذه الآيات على الوجوه البلاغية ، والانواع البديعية مبينا فى دراسته لهذه الانواع سلامة نظم القرآن ، وسلامة أسلوبه . وبلاغة معانيه ، وفصاحة ألفاظه ، والحق أن هذا الصنيع قد انفرد به ابن الاصبغ ، فلم يصنع أحد من العلماء قبله صنيعه فى تأليف كتاب تتميز فيه بلاغة القرآن ، وبديعه ، ليسهل من وراء ذلك استخراج اعجازه ، وتقريب طرق اظنايه ، وايجازه .

وابن أبى الاصبغ لا يقصد بالبديع المحسنات البديعية التى اصطلح عليها المتأخرون من علماء البلاغة كالجناس والطباق والتورية ، وغيرها من المحسنات ، وإنما يقصد بالبديع جميع مباحث البلاغة الشاملة لعلومها الثلاثة عند المتأخرين ، وهى المعانى ، والبيان ، والبديع ، فهو حين تناول البلاغة بالدرس والتحليل لم يتقيد بصنع السكاكى فى تقسيم البلاغة الى هذه العلوم الثلاثة ، بل درسها عنى أنها « بديع » فجدد لها ثبابها ، وعاد بها الى عصرها الذهبى الذى كانت تدرس فيه دراسة أدبية فنية ذوقية بعيدة عن القضايا الكلامية ، والمسائل الفلسفية على يد عبد القاهر الجرجانى وغيره من الادباء والنقاد المتذوقين لحلاوة اللغة العربية ، والواقفين على أسرارها ، ودقائقها ، والعالمين بطرق التعبير فيها يستبين هذا من تعليقه على الآيات القرآنية التى أوردها فى كتابه « بديع القرآن » والتى ذكرنا طرفا منها فى الصفحات السابقة فى هذا البحث . اذ نراه يذكر من الانواع البديعية : المجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، وهى من مباحث « علم البيان » عند المتأخرين من علماء البلاغة . ونراه يذكر من الحلى البديعية : الایجاز ، والمساواة ، والتذييل ، والاحتباس ، والتكميل ، والایغال . وهى من مباحث « علم المعانى » عند المتأخرين من علماء البلاغة . ونراه يذكر من الالوان البديعية : المطابقة والتقسيم ، والارداف . وهى من مباحث « علم البديع » عند المتأخرين من علماء البلاغة .

ودراسة ابن أبى الاصبع للنظم القرآنى شبيهة بدراسة عبد القاهر الجرجاني ، فكلاهما يعتمد فى دراسته على الذوق الفنى ، الا أن ابن أبى الاصبع قد توسع فى دراسته للنظم القرآنى ، واهتم به اهتماما عظيما ، حتى أفرد له كتابا خاصا سماه « بديع القرآن » والحق أنه قد أبدع فى هذا البديع وأحسن غاية الاحسان ، وفاق من سبقه ، وأتى بما لم يأت به غيره من السابقين ، وهذه ليست مجاملة منى لابن أبى الاصبع لانه مصرى مثلى ، وانما هى الحقيقة مجردة عن المجاملة والمبالغة . يدركها كل من حباه الله ذوقا رقيقا يتمكن به من معرفة جيد الكلام من رديئه ، وتمييز غثه من ثمينه . ثم تحدث عن الاعجاز فى القرآن الكريم « عز الدين بن عبد السلام » المتوفى سنة ٦٦٠ هـ فى كتابه « الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز » .

وان من ينعم النظر فى كتابه هذا يرى أنه يرد السر فى اعجاز القرآن الى ايجازه ، ومجازه وجمال ألفاظه ، وسهولتها ، وبديع نظمه ، ومن أجل ذلك فاننا نراه يتحدث بأسهاب عن الايجاز والمجاز فى القرآن الكريم ، معتمدا فى ذلك على ذوقه ، وعقله ، وثقافته الواسعة المترامية الاطراف كذلك نراه يوازن بين ألفاظ القرآن ، وبين غيرها مما هو موجود فى لغة العرب . ثم بفضل ألفاظ القرآن لجمالها ، وخفتها ، وما تضيفه على الاسلوب من الروعة ، والسحر ، وعلى المعنى من قوة التأثير وقد بدأ فى كتابه بالحديث عن الايجاز فذكر أنه « الاقتصار على ما يدل على الغرض مع حذف ، أو اضممار ثم أخذ فى الحديث عن الايجاز بالحذف فى القرآن الكريم ، وحصره فى تسعة عشر نوعا هى :

- ١ - حذف المضاف .
- ٢ - حذف المفعولات .
- ٣ - حذف الموصوفات .
- ٤ - حذف الاقوال .
- ٥ - حذف الشروط .
- ٦ - حذف أجوبة الشرط .
- ٧ - حذف جواب « لو » .
- ٨ - حذف جواب « لولا » .
- ٩ - حذف القسم .
- ١٠ - حذف أجوبة القسم .
- ١١ - حذف المبتدأ .
- ١٢ - حذف الخبر .

- ١٣ - حذف بعض حروف الجر .
- ١٤ - حذف الافعال المعاملة .
- ١٥ - حذف المفاعيل التي يغلب حذفها .
- ١٦ - حذف ضمائر الموصولات .
- ١٧ - حذف فعل الامر .
- ١٨ - حذف الجملة .
- ١٩ - حذف الجمل .

وقد ساق لكل نوع من هذه الانواع الجمل الكثير من الشواهد القرآنية ، وقام بشرحها وتحليلها ، ثم ذكر فائدة الحذف فقال : « وفائدة الحذف تقليل الكلام ، وتقريب معانيه الى الافهام » (٢) .

واليك أيها القارئ الكريم نماذج من الشواهد القرآنية التي ساقها وشرحها ، وحللها بأسلوبه الخاص الذي يجمع بين الروعة الادبية ، والدقة العلمية لكي تتعرف من خلالها على المجهود المشكور الذي بذله في هذا المجال ، وعلى مدى فهمه لاسرار النظم القرآني ، وما ينطوي عليه من الدقائق ، واللطائف التي لا يفتن اليها الا أصحاب الازواق السليمة ، ولا يصل اليها الا نووا المواهب الفنية ، ولا يستخرجها من كنوزها الا العالمون بطرق التعبير في اللغة العربية فمن شواهد الايجاز بالحذف التي ساقها قوله تعالى : « حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » أي حرمنا عليهم أكل طيبات أحل لهم أكلها ، أو تناولها ، ثم أشار الشيخ عز الدين بأن تقدير التناول أولى ليدخل فيه شرب ألبان الابل ، فانها من جملة ما حرم عليهم . وهذه دقيقة تدل على عمق فهم الشيخ ، وسعة اطلاعه ، ومن الشواهد التي ساقها أيضا قوله تعالى : « وأنعام حرمت ظهورها » ويعلق عليه بقوله : « فيحتمل حرم ركوب ظهورها ، ويحتمل حرمت منافع ظهورها ، وهو أولى ، لأنهم حرموا ركوبها وتحميلها » (٢) وهذه دقيقة أخرى كسابقتها تدل على فضل الشيخ ، وكفاءته العلمية وموهبته الفنية .

وفي باب « حذف الاقوال » نراه يسوق من الشواهد قوله تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم » تقديره : يقولون سلام عليكم . ثم أشار الشيخ في هذا الباب الى لطيفة أدبية تدل على حسن تذوقه للغة القرآن الكريم وفهمه لروحه الادبية . ملخصها . أنه يقدر في كل موضع

(١) الاشارة الى الايجاز في بعض أنواع المجاز ص ٢

(٢) الاشارة الى الايجاز في بعض أنواع المجاز ص ١٢ .

أحسن تقدير أى ينبغى أن يراعى فى تقدير المحذوف كونه مناسباً لما حذف، منه حتى تتأخى الالفاظ ، ويأخذ بعضها بحجز بعض ، ويحصل الانسجام التام بينها ، وبين بعضها ، فيقدر فى قوله تعالى : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » . وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق . ولا يقدر . ويقال لهم . لان « قيل » يناسب « أعيدوا » .

وكذلك يقدر فى قوله تعالى : « فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم » فيقال لهم . ولا يقدر . فقيل لهم . لتقدم . تبيض ، وتسود . ويقدر فى قوله تعالى : « يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر » . ويقال لهم ذوقوا مس سقر مناسبة « يسحبون » (١) .

وفى باب « حذف القسم » يذكر من الشواهد قوله تعالى : « لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم » تقديره والله لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم . وقوله : « والذين آمنوا ، وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين » تقديره والله لندخلهم فى الصالحين . ثم أشار المؤلف رحمه فى هذا الباب الى لطيفة أدبية تدل على حسن تذوقه لاساليب القرآن الكريم . ملخصها أن ما يحذف من القسم يختلف باختلاف عادة المقسمين فيقدر فى قول فرعون : « لا قطعن أيديكم » فبعزتي لا قطعن أيديكم . لانه كان لا يقر بالله فيقسم به ، والذى عهد فى عصره قول السحرة : « بعزة فرعون انا لنحن الغالبون » (٢) .

وفى باب « حذف المضاف » يسوق من الشواهد قوله تعالى : « فما أوجفتم عليه » ثم يعلق عليه فيقول : « فما أوجنم على أخذه ، أو على حيازته ، أو على اغتنامه ، أو على تحصيله » ثم يشير رحمه الله الى لطيفة أدبية تدل على رقة ذوقه ، ولطافة حسه ، وصفاء ذهنه . ملخصها أنه اذا احتمل تقدير المحذوف أكثر من لفظ فينبغى أن يقدر من هذه المحذوفات أخفها وأحسنها ، وأفصحها ، وأشدّها موافقة للغرض ، فتقدير « أخذه » فى الآية أحسن من تقدير « اغتنامه » لانه أخصر ، ومن تقدير « حيازته » لثقل التانيث الذى فى حيازته ، وكذلك جميع حذف القرآن من المفاعيل والموصوفات ، وغيرها لا يقدر الا أفصحها ، وأشدّها موافقة للغرض ، لان العرب لا يقدرّون الا ما لو لفظوا به لكان أحسن ، وأنسب لذلك الكلام كما يفعلون ذلك فى الملفوظ به مثال ذلك قوله تعالى : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس » قدر أبو على . جعل الله نصب الكعبة ، وقدر بعضهم . جعل الله حرمة الكعبة . وهو أولى .

من تقدير أبى على ، لان تقدير الحرمة فى الهدى ، والقلائد ، والشهر الحرام لا شك فى فصاحته ، وتقدير النصب فيها بعيد من الفصاحة « (١) » .

ثم أشار كذلك الى أن المحذوف اذا احتمل أكثر من لفظ ، فينبغى أن يقدر من الالفاظ أخصرها لان اختصار المحذوفات أحسن من اطالتها ، ولا يقدر ما فيه طول الا عند الاضطرار الى الاطالة كقوله تعالى : « ان الله مبتليكم بنهر » تقديره • ان الله مبتليكم بشرب ماء نهر • وكقوله تعالى : « فقبضت قبضة من أثر الرسول » تقديره • فقبضت قبضة من أثر حافر الرسول « (٢) » .

وفى الباب نفسه يسوق من الشواهد قوله تعالى : « آمَنُوا بِاللَّهِ » ثم يعلق عليه بقوله : « تقديره : آمَنُوا بوحداية الله • ولا يقدر • آمَنُوا بوجود الله • لان الذين خوطبوا بهذا كانوا مؤمنين بوجوده وأنه خلق السموات ، والارض ، وسخر الشمس ، والقمر ، وأنزل من السماء المطر ، فيقدر فى كل مكان ما يليق به ، فان كان الخطاب مع المشركين قدرت • فامَنُوا بوحداية الله ورسوله • لان الكلام مع قوم جحدوا الوحداية ، وان كان الكلام مع اليهود كان التقدير • ولو آمن أهل الكتاب بدين الله ، وان كان مع النصارى جاز أن يقدر • آمَنُوا بدين الله ، وآمَنُوا بوحداية الله • وكذلك فى الكفر ، يقدر فى كل مكان ما يليق به فيقدر فى قوله تعالى : « كيف تكفرون بالله » كيف تكفرون بقدرة الله على بعثكم ، وقد كنتم أمواتا فأحياكم • ويقدر فى قوله تعالى « ألا ان عادا كفروا ربهم » ألا أن عادا كفروا نعم ربهم « (٣) » وهذه احدى اللطائف الادبية التى لا يفتن اليها الا من أوتى حظا وافرا من الذوق الادبى ، والقريحة الصافية ، والحس المرهف •

ثم نراه فى هذا الباب أيضا يشير الى مسألة لا يفتن اليها الا من أشرقت أنوار الرحمن فى قلبه ، ومنحه الله ذوقا رقيقا صافيا يدرك ما احتجب خلف الاستار من الاسرار وملخص هذه المسألة : أن تقدير ما ظهر فى القرآن أولى فى باب من كل تقدير « (٤) » .

وهذا جميل من الشيخ رحمه الله الا أنني كنت أريد منه أن يعبر بالوجوب بدلا من الأولوية فيقول : ان تقدير ما ظهر فى القرآن واجب فى بابه • لان الأولوية تشعر فقط بالمفاضلة وأن ما ظهر فى القرآن يقدم فى التقدير على غيره من كلام البشر ، وأنا أرى أن كلام الله يعلو ، وما يعلى عليه ، وأنه

(١) الإشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز ص ٤

(٢) المصدر نفسه ص ٥

(٣) الإشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز ص ٨

(٤) المصدر نفسه ص ٩

يجب تقديمه ، والاقتصار عليه فى التقدير ، فهو الكلام المعجز الذى لا يأتى به الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وهو الذى وقف أساطين البيان حيارى أمام بلاغته وعجزوا عن الاتيان بأقصر سورة من مثله ، وأن ما عليه صفوة البشر من البلاغة غرفة من بحاره ، وقبس من ونواره . ثم ان المحذوف فى آية اذا ظهر فى آية أخرى أصبح من جملة نص الآية ، فيجب الاقتصار عليه فى التقدير ، لأن النص القرآنى لا يجوز فيه التغيير ، والتبديل ، ولا الرواية بالمعنى ، لان ألفاظ القرآن مقدسة « لا مبدل لكلمات الله » وبناء عليه فالمحذوف فى آية اذا ظهر فى آية أخرى ، وجب أن يقتصر عليه فى التقدير ، لا أن يقدم على غيره من كلام البشر ، وتكون له الاولوية فقط كما قرر الشيخ رحمه الله ثم ساق الشيخ أمثلة قرآنية لهذه المسألة ، ووضحها توضيحاً تاماً ، ومن هذه الأمثلة قوله تعالى :

« حتى تأتيهم البينة رسول من الله » ثم علق عليه بقوله : تقديره : رسول من عند الله . لانه قد ظهر فى قوله تعالى : « ولما جاءهم رسول من عند الله » وقوله تعالى : « ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا » ثم علق عليه بقوله : تقديره : رحمة من عندنا . لانه ظهر فى سورة الانبياء فى قوله تعالى : « رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » وقوله تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » وعلق عليه بقوله : قد جاءكم من عند الله نور وكتاب مبين . بدليل قوله : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم » وقوله تعالى : « ويخوفونك بالذين من دونه » ثم علق عليه بقوله : تقديره . ويخوفونك بالذين يدعون (١) من دونه . بدليل قوله تعالى : « والذين تدعون من دونه لا يخلقون شيئاً » وقوله تعالى : « فأنجيناهم والذين معه برحمة منا » ثم علق عليه بقوله : تقديره : « والذين آمنوا معه » بدليل قوله تعالى : « لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك » (٢) .

ثم بعد أن فرغ من الحديث عن الایجاز بالحذف قام برحلة فى رياض القرآن الكريم جمع فيها ألواناً شتى من المجاز فى القرآن ، وشرحها شرحاً وافياً ، وساق لها الجمل الكثير من الشواهد القرآنية ، ووضح القول فى مجازها . فتحدث عن المجاز فى وصف الفاعل ، والمفعول بالمصدر ، وعن المجاز فى الحروف ، وعن المجاز فى الافعال ، وعن مجاز التضمين ، وعن مجاز اللزوم ، وعن مجاز التشبيه .

واليك أيها القارئ لأكريم نماذج من المجازات التى أوردتها فى كتابه ، وفى باب « المجاز فى وصف المفاعل والمفعول بالمصدر » يورد من الشواهد قوله

(١) المحذوف فى الآية هو صلة الموصول ، وكذلك الآية التى بعدها .

(٢) الإشارة الى الایجاز فى بعض أنواع المجاز ص ٩٠ ، ١٠

تعالى : « يؤمنون بالغيب » ثم يعلق عليه بقوله : « أى بالغائب . فيكون من مجاز المبالغة فى الصفة ، أو بذى الغيب فيكون من مجاز الحذف . وقوله تعالى : « انه لقول فصل » ويعلق عليه بقوله : أى بقول فاصل بين الحق والباطل كقولك انه لرجل عدل أى عادل فيكون من مجاز المبالغة ، فى الصفة ، أو لقول ذو فصل . فيكون من مجاز الحذف ، وكونه من مجاز المبالغة أولى لان المقام يقتضى المبالغة أى لقول هو عين الفصل (١) . ويفهم من كلامه فى هذا الباب أن المجاز فى وصف الفاعل والمفعول بالمصدر تارة يكون للمبالغة ، وتارة أخرى يكون من قبيل مجاز الحذف ، وأن ذلك يتوقف على ملاحظة المقام ، والمعنى المقصود ، فاذا كان المقام يقتضى المبالغة كالمحذوف والتأكيد فيكون من قبيل مجاز المبالغة فى الصفة ، والا كان من قبيل مجاز الحذف .

وفى « مجاز التضمنين » نراه يعرف التضمنين تعريفا أدبيا سهلا ميسورا محببا الى النفوس بعيدا عن التعقيدات الفلسفية المنطقية فيقول : « هو أن تضمن اسما معنى اسم لافادة معنى الاسمين ، فتعدية تعديته فى بعض المواطن ، أو تضمن فعلا معنى فعل لافادة معنى الفعلين ، فتعديه تعديته فى بعض المواطن كذلك » (٢) وهذا التعريف يشعر بأن فائدة مجازا لتضمنين هى الاختصار والايجاز لان الاسم المضمن يفيد معنى الاسمين ، والفعل المضمن يفيد معنى لافعلين كذلك .

ثم أورد له بعض الشواهد القرآنية وجعل منها قوله تعالى : « كتب عليكم القصاصى » وعلق عليه بقوله : أى فرض عليكم . ضمن « كتب » معنى «فرض» لافادة كونه مكتوبا مفروضا ، والكتابة حادثة والفرض قديم .

كذلك نراه يورد من الشواهد القرآنية فى هذا الباب قوله تعالى : « وأخبتوا الى ربهم » ثم يعلق عليه بقوله : ضمن « أخبتوا » معنى « أنابوا » لافادة الاخبات والانابة معا .

كذلك نراه يورد من الشواهد القرآنية قوله تعالى : « يؤمنون بالغيب » ويعلق عليه بقوله : « أى يقرون بالغيب لافادة معنى التصديق بالقلب ، والافرار باللسان » (٣) .

وهكذا يستمر فى سرد الشواهد القرآنية لهذا المجاز ، ويتبع هذا السرد بالتعليق والتحليل ، والايضاح والتبيين .

(١) المصدر نفسه ص ١٠

(٢) الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز ص ٥٤

(٣) الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز ص ٢٤٨

ونراه في « مجاز التشبيه » يورد من الشواهد قوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم » ثم يعلق عليه بقوله « شبه الاسلام بالطريق المستقيم لأدائه الى الجنان ، ورضى الرحمن ، وفي التعبير عن الدين بالصراط ترغيب في اتباعه ، لان كونه صراطا مشعرا بأدائه الى رضى الله ، وثوابه ، والدين لا يشعر بذلك » (١) . وهو في تعليقه على الآية الكريمة يبين فصل المجاز على الحقيقة ، اذ أن في التعبير بالصراط المستقيم عن الدين معنى جميلا ، لا يشعر به لفظ الحقيقة .

ومن الشواهد التي ذكرها في هذا الباب قوله تعالى : « ويتبصرون أيديهم » ثم علق بقوله : « شبه امتناعهم من كل خير بقبض اليد » وأنا أرى أن جعل الآية من قبيل الكناية عن « الدخول » أولى من جعلها من قبيل مجاز التشبيه ومن الشواهد التي أوردها أيضا قوله تعالى : « ومن بيننا وبينك حجاب » ثم علق عليه بقوله : « شبهت موانع الانتفاع بما يقوله ، ويدعوهم اليه بالحجاب المانع من الرؤية ، والسماع » .

ومن الشواهد التي أوردها في هذا الباب قوله تعالى : « واذا قتلتم نفسا فادار أتم فيها » ثم علق عليه بقوله : « أى فقدافتم في قتلها تجوز بالتدافع عن الاختلاف ، لان المدعى عليه يدفع عن نفسه ما نسب اليه من القتل ، والمدعى يدفع القتل عن نفسه أيضا فشبه دفع المعانى بدفع الاجرام وأنا أرى أن الآية من قبيل المجاز المرسل فقد أطلق السبب وهو « ادارأتم » بمعنى « تدافعتم » وأراد سببه وهو « الاختلاف » لان الاختلاف سبب في « التدافع » وفيها الى جاذب ذلك ايجاز بالحذف في قوله : « فيها » أى في قتلها .

ومن الشواهد التي أوردها في هذا الباب قوله تعالى : « وما يدخل الايمان في قلوبكم » ثم علق عليه بقوله : الدخول الحقيقي انتقال جرم من خارج الشيء الى داخله ، ولا يتصور في الايمان انتقال من خارج القلوب الى داخلها ، ولا خروج منها الى ظاهرها ، بل شبه حصوله في القلوب بعد أن لم يكن فيها بجرم دخل الى حيز بعد أن لم يكن فيه ، وكذلك شبه خلو القلوب منها بخلو الاحياز من أجرام كانت فيها ، ثم فارقتها » .

وان من ينعم النظر في شواهد التي ساقها في مجاز التشبيه يرى أن بعضها من قبيل الاستعارة ، وبعضها من قبيل التشبيه ، وبعضها من قبيل الكناية ، وبعضها من قبيل المجاز المرسل ، ولعله يريد من مجاز التشبيه كل هذه الامور ، ولولا خوفا من الاطالة التي تبعدني عن موضوع البحث لقممت بتحقيق المسألة .

كذلك ساق شواهد كثيرة لمجاز الزوم ، والمجاز فى الحروف ، والافعال ، وعلق عليها ، ولكن هذه الشواهد قد نقلها من كتب التفسير ، وليس له فيها مجهود يذكر لذا رأيت من المستحسن ألا أذكرها .

ثم بعد أن رجع الشيخ من رحلته التى قام بها فى رياض القرآن الكريم باحثاً ومنقبا عن أزهار المجاز ورياضه اتجه بحسه المرعف ، وذوقه الرقيق الى أسلوب القرآن الكريم ليكشف لنا عن جمال ألفاظه ، ودقة تراكيبه ، وعمق معانيه ، فقرر أن نظم القرآن لا يدانيه نظم ، وأن أسلوبه أسلوب فريد ، وأنه فوق طاقة البشر ، ثم ساق أمثلة برهن بها على جمال ألفاظ القرآن موازنا بينها ، وبين غيرها ، ولقد أبدع فى ذلك ، وأجاد ، وأحسن ، وأتى بما لم يأت به غيره ، وهذا ان دل على شىء فانما يدل على رسوخ قدم هذا الشيخ الجليل فى فن النقد ، ودرايته التامة ، وخبرته الواسعة بأساليب لغة القرآن الكريم ، ثم ان مما يلفت النظر أن هذه الموازنات التى قام بها ، ودلل بها على بلوغ القرآن الدرجة القصوى فى جمال ألفاظه ، وحسن تراكيبه ، وجودة نظمه لم يتعرض لها أحد من السابقين من أئمة البيان العربى من مفسرين وبلغاء ، ومن هذه الامثلة قوله تعالى : « وجنى الجنتين دان » ثم يعلق على هذا القول الكريم بقوله : « لو قال مكانه ، « وثمر الجنتين قريب » لم يكن كقوله : « وجنى الجنين دان » من جهة المجناس بين الجنا والجنتين ، ومن جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره الى حال يجنى فيها ، ومن جهة مؤاخاة الفواصل » ومن الامثلة التى ساقها أيضا قوله تعالى : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » ثم يعلق عليه بقوله : « لو قال : « ولو أعيدوا الى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه » لم يكن كقوله : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » لوجهين : أحدهما أن « ردوا » موافق لقوله : « يا ليتنا نرد » الوجه الثانى لو قال : « ولو أعيدوا » لسمح من جهة أن اللفظ المتحد كالطعام المتحد ، واللفظ المختلف مع اتحاد المعنى كالطعام المختلف أذ من ذوق الطعام المؤتلف (١) وهذا التعليق يدل على اعتمام الشيخ فى دراسته لبلاغة القرآن على ذوقه وحسه ، اذ يتخيل الالفاظ المختلفة أطعمة مختلفة يتلذذ الانسان بذوقها ، ويتمتع بحلاوتها ، ويتخيل اللفظ المتحد طعاما متحدا يملأ الانسان ويسأمه ، ومن أمثله التى ساقها قوله تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب » ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطون » ثم يعلق عليه بقوله : قوله « تتلو » أحسن من قوله : « تقرأ » لتقل « تقرأ » بالهمزة ، وقوله : « لا ريب » أحسن من قوله : « لا شك فيه » لتقل الادغام فى الشك ، واجتماع المثنيين ، ولهذا كثر ذكر الريب فى القرآن » ومن شواهد التى ساقها قوله « ولا تهنوا » ثم علق عليه بقوله : « ولا تهنوا » أحسن من قوله : « ولا تضعفوا » لحنة « تهنوا » وتقل « تضعفوا » ومن شواهد قوله تعالى : « وهن العظم منى » ثم علق عليه بقوله « هذا التركيب أفصح من

« ضعف العظم من » لان الفتحة فى « وهن » أخف من الضمة فى « ضعف » ومن شواهد قوله تعالى : « آثرك الله علينا » ثم علق عليه بقوله : « هذا انتركيب أحسن من » فضلك الله علينا » لخفة « آثر » وثقل « فضل » ومن شواهد قوله تعالى : « هذا خلق الله » ثم علق عليه بقوله « خلق » أخف من « مخلوق » لان « الخلق » ثلاثة أحرف و « المخلوق » خمسة أحرف •

ولقد كشف الشيخ رحمه الله بهذا التعليق عن لطيفة أدبية ، ودقيقة فنية ، غابت عن أذهان كثير من علماء البلاغة ، فهم يرون أن التعبير بالمصدر عن اسم الفاعل ، والمفعول يفييد المبالغة ، وغفلوا عما كشفه الشيخ وهو الخفة التى فى المصدر لقلة حروفه ، ولقد صرح بهذا فقال : « ومن ذلك التجوز بالمصدر عن المفعول لان التللف بالمصدر أخف من التللف بالمفعول ، والتجوز بالمصدر عن المفعول لان التللف بالمصدر أخف من التللف بالمفعول ، والتجوز بالمصدر عن اسم الفاعل أخف من ذكر الفاعل كقولك مررت برجل عدل فانه أخف من عادل ، ومن هنا كان قوله تعالى : « يؤمنون بالغيب » أخف من يؤمنون بالغائب (١) •

هذا هو رأى عز الدين بن عبد السلام فى اعجاز القرآن ، وملخصه كما ذكرت آنفا أنه يرى أن القرآن معجز بایجاز ، ومجازه ، وجمال ألفاظه ، وحسن تراكيبه ، وعمق معانيه ، وبديع نظمه ، وقد عرضه بأسلوب جميل ، جمع فيه بين الروعة الادبية ، والدقة العلمية ، فطاف حول رياض القرآن مستنشقا عبيرها الذى عطر الاكوان ، وغاص فى بحار الفرقان مستخرجا لآلئه ، وجواهره الحسان • عارضا اياها أمام أعين الانام ، كي يتذقوا جمالها الفتان ، ويعرفوا كيف كان القرآن معجزا لاساطين البيان ؟ وليس هذا بكثير على عز الدين ابن عبد السلام ، فهو الزاهد التقى الورع ، الذى جاهد نفسه ، ودخل معها فى صراع مرير ، طویل ، حتى كبح جماحها ، وسيطر عليها ، فصفت روحه وأشرقت أنوار الرحمن فى قلبه ، وأضاءت الحكمة جوانب عقله ، وخطبت عرائس البيان وده ، فنطق لسانه بالسحر الحلال ، وجاد فكره بنفائس المعانى ، وجواهر البيان ، الا أننى آخذ عليه أنه أفرط فى المجاز ، وجعله من وجوه الاعجاز ، مع أنه ليس محل اتفاق بين العلماء ، فمنهم من أنكر وجوده فى القرآن ، ومنهم من أجازته ، وحتى من أجازته منهم لم يجزه على اطلاقه ، وما دام المجاز فى القرآن ليس محل اتفاق بين علماء البيان ، فلا يصح جعله من وجوه الاعجاز •

وهو متأثر فى دراسته للمجاز فى القرآن بالشريف الرضى • ومتأثر فى دراسته للايجاز بالرماني والفرق بينما أن دراسة الرماني للايجاز فى القرآن الكريم كانت دراسة فنية تعتمد على الذوق والاحساس ، أما دراسة العز بن

عبد السلام فكانت أقرب الى الدراسة العلمية التي تعتمد على العقل وتتميل الى الضبط . ومتأثر في دراسته لاسلوب القرآن ، والموازنة بينه ، وبين غيره بالشيوخ عبد القاهر الجرجاني فكلاهما اعتمد في هذه الدراسة على ذوقه ، وحسه الا أن عبد القاهر توسع في هذه الدراسة أكثر من العز بن عبد السلام .

وبعز الدين بن عبد السلام نأتى الى خاتمة مشاهير العلماء الذين تكلموا عن الاعجاز في القرآن الكريم ، وقد جاء من بعده علماء ، تكلموا في هذه الناحية، لكن جهودهم ، قد اقتضت على نقل وجمع آراء السابقين ، ولم يكن لهم جديد في هذه الناحية يستحق الدراسة والتسجيل ومن هؤلاء « الزمكاني » المتوفى سنة ٧٢٧ هـ و « الزركشى » صاحب كتاب « البرهان في علوم القرآن » والمتوفى سنة ٧٤٥ هـ ، و « ابن قيم الجوزية » صاحب كتاب « الفوائد » والمتوفى سنة ٧٥١ هـ و « السيوطي » صاحب كتاب « الاتقان في علوم القرآن » والمتوفى سنة ٩١١ هـ .

أما في عصرنا هذا فأحسب أن خير من كتب في هذه الناحية المرحوم « مصطفى صادق الرافعي » صاحب كتاب « اعجاز القرآن » والمرحوم « سيد قطب » ومن خير آثاره في هذا الموضوع « التصوير الفني في القرآن » و « مشاهد يوم القيامة في القرآن » وتفسيره « في ظلال القرآن » .

الفصل الثالث

«مظاهر الإعجاز فى نظم القرآن»

إن للإعجاز فى النظم القرآنى مظاهر كثيرة سنتحدث عنها فى هذا الفصل من هذا البحث إن شاء الله ولكن لابد أن نذكر قبل ذلك مقدمة نوضح فيها مصدر هذه المظاهر كلها وأساس الإعجاز القرآنى فى جملته إذ إن لهذه المظاهر التى سنتحدث عنها جذورا كامنة فى هذا المصدر ومن أجل هذا لا يمكن فهمها إلا بالرجوع اليه .

بيان ذلك أن مرد البلاغة الكلامية الى الدقة فى مطابقة اللفظ للمعنى ، ومدى القدرة على تسخير الاول لتجلية الثانى وعرضه فى المظهر المطلوب .

ومن أهم أسباب ذلك أن يتسارع الى الذهن عامة ألفاظ اللغة ومترادفاتها بحيث يتكامل تصورها فى جانب من الذهن كما يتكامل تصور المعنى فى الجانب الآخر منه ، فبمقدار ما يتم من التطابق الدقيق بين المعنى القائم فى الذهن واللفظ الدال عليه والمصور له ، يوصف الكلام بالبلاغة والبيان . وتحقيق هذا الامر فى مظهره الكامل ، شىء عسير بل محال لا يكاد يصل اليه الطوق البشرى وذلك لسببين :

أولهما : أن المعانى والتصورات أسرع الى الذهن دائما من الالفاظ وقوالب التعبير ، فالألفاظ مهما جاءت منمقة ، فانها تعجز فى عامة الاحوال عن اجتثاث حقيقة احساسات النفس وما يختلج فيها .

واللغة مهما كان نوعها لا تغطى الا جزءا يسيرا من المشاعر والمعانى .

فالالم أنواع من الشعور والاحساس ، وليس له الا كلمة واحدة فى اللغة ، وطعم الحلاوة أنواع فى الشعور والذوق ، وليس يعبر عنه الا بكلمة واحدة هى الحلاوة . وكذلك الالوان والروائح وغيرها ، لا تملك اللغة الا التعبير عن سطحها القريب . فاذا ما أردت أن تدقق ، تخلفت اللغة عنك ، وبقيت مع مشاعرك الصامتة .

ثانيا : مهما كان المتكلم أو الكاتب لغويا بليغا ، ومهما كان يحفظ فى ذهنه من متن اللغة وألفاظها ووجوه تركيبها ، فانه انما يقف من هذه اللغة أمام بحر عظيم من الكلمات والتعابير الحقيقية والمجازية المختلفة ، وهيات أن تنتصب هذه المعايير كلها مكشوفة واضحة أمام خياله كما تنتصب مضارب الأحرف

من الآلة الكاتبة أمام ضاربها وانما هو - عند ارادة التعبير - انما يلقي حبال تفكيره وذمته اثنى هذا البحر العظيم ليلتقط منه ما تسارع اليه وسهل على لسانه أو اعتاد عليه قلمه وفكره ، وفي اللغة من المترادفات الكثيرة ما ينجده لغرضه ، ويقوم بعضه مقام بعض في التعبير العام عن مقصوده .

بيد أن هذه المترادفات انما تحسب مترادفات ، اذا ما أريد منها الدلالة الاجمالية على المعنى وهي ما يقتنع به العامة من المتكلمين ممن لا يطمعون بأكثر من ايصال خلاصة احساساتهم ومجمل أفكارهم الى الآخرين . أما عند سبر أغوار هذه الكلمات واستخراج ما بينها من الخصائص والفروق ، فهي ليست عندئذ من المترادف في شئ ، وانما لكل منها دلالة الخاصة واشارته المميزة وایماؤه الذى لا يشترك فيه غيره ، وتصويره الذى ينفرد به عن نظائره ، وانما تتضح هذه الفروق ، وتتجلى للعيان عندما يريد الكاتب أو المتكلم أن يهوى الى السامع صورة لدقائق احساسه أو فكره وتأملاته . فتراه يمايز بين هذه المترادفات ويتأمل فى جرس كل منها ووقعه ودلالته ، وقد يفسد الكلام كله فى حسابه بتبديل كلمة منه بأخرى أو لدى أى تحوير فى نسقه . وسبكه من تقديم أو تأخير (١) .

واسمع ما يقوله الباقلانى فى هذا الصدد :

« وهو - أى أمر اختيار الكلمة - أدق من السحر ، وأهول من البحر ، وأعجب من الشعر ، وكيف لا يكون كذلك ، وأنت تحسب أن وضع « الصبح » فى موضع « الفجر » يحسن فى كل كلام الا أن يكون شعراً أو سجياً ، وليس كذلك . فان احدى اللفظتين قد تنفر فى موضع ، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى ، بل تتمكن فيه وتضرب بجرائنها ، وتراها فى مظانها ، وتجدها فيه غير منازعة الى أوطانها ، وتجدها الأخرى - لو وضعت موضعها - فى محل نفار ، ومرمى شراد ، ونابية عن استقرار (٢) .

فمن هنا تضيق السبيل على من ينشد الدقة فى التعبير والصدق فى تصوير الاحساس والمعانى اذ تسقط فائدة المترادفات من حسابه لما يختص به كل منها من وظيفة ومكان ، فتجده يقع فى احدى النقائص التى لا مخلص منها ، واما أن يجنح الى اختصار مفسد مخل ، واما أن يقع فى كلامه على ألفاظ وتعابير تفسد عليه تصويره ، وتشوش على السامع مقصوده . واذا اتسعت أمامه السبيل فى معالجة بعض المعانى والتعبير عنها ، ضاقت عليه السبيل عن معان أخرى .

(١) من روائع القرآن للبوطى ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(٢) اعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨٤ .

وما كاتب من الكتاب أو بليغ من البليغ في القديم أو الحديث الا وفيه هذه النقائص أو فيه واحدة منها • وذلك كله ليس الا مظهرا للضعف البشرى الناتج عما يتمتع به من طاقة محدودة •

فمصدر الاعجاز القرآنى بمظاهره المختلفة لا يمت الى هذا الضعف البشرى بأى سبب •

اقرأ ما شئت من سورة وآياته ، فستجد أن كلا من جانبي اللفظ والمعنى فيه متوافقان متطابقان أتم ما يكون الوفاق والتطابق ، لا تشعر أن حرفا واحدا يفيض فى جانب اللفظ عن المعنى ، ولا تجد أى جانب فى المعنى - مهما دق ولطف - قد قصر عن الدلالة عليه اللفظ والتعبير •

وانك لتتأمل فتجد أن اللفظ فيه يدل على المعنى ، والمعنى بدوره يدل على اللفظ فكل منهما مرآة للآخر •

وتأمل ، لتفهم أيهما التابع وأيهما المتبوع ؟ هل اللفظ ظل للمعنى ، يحكيه ويجسده ويحدده ، أو المعنى ظل لللفظ يحويه ويحركه ويجمله ؟ فلا تفهم الا أنهما متمازجان يتعاوران الدلالة على أخص وأدق ما فى كل منهما من الملامح والسمات ، وكأنهما فى هذا الابداع الالهى العجيب متوالدان من بعضهما ، وكل منهما ميزان دقيق للآخر ، لا يقرأى بينهما أى أثر من آثار التفاوت والاختلاف •

فان كنت فى شك مما أقول ، وأردت أن تقف على الميزان والدليل ، فافتح كتاب الله ، وخذ منه أى آية من آياته ، ثم حاول مستعينا بكل ما لديك من كتب اللغة وقواميسها ، وبكل من تعرف من أرباب البلاغة وعلماء العربية والبيان أن تستبدل بأى كلمة فيها كلمة أخرى تدل على نفس المعنى ، فان استطعت أن تأتى بكلمة أدل على المعنى المطلوب ، وأتم فى اشراقها البيانى ، أو هى مثلها تقع موقعها لا ترتفع عليها ولا تنخفض عنها ، فاعلم حينئذ أن كل ما قد قاله العلماء عن اعجاز القرآن وبلاغته لغو من القول لا يستند الى جوهر من الحق • أما ان رأيت أن أى كلمة أخرى لا تفى بالمعنى والجرس والتناسق اللفظى كما تفى به الكلمة القرآنية ، وأن أى تغيير أو تبديل فى الجملة القرآنية يزيل منها وجهها رائعا ، ويضع لها وجهها آخر قاتما أو ضعيفا أو متنافرا ، فاعلم أن ذلك هو الدليل الذى لا يمارى فيه على أن هذا الكتاب ليس مما يضعه البشر أو يطبقونه (١) • وخذ مثلا قول الله عز وجل وهو يصف باهر قدرته وحكمته فى خلق الكون وتنظيمه :

« فائق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم » (١) •

وابحث عن أى كلمة أخرى تقوم مقام « فائق » تؤدى معناها وتقوم مقامها فى تصوير المراد وتجسيم الفكرة ، وابحث عن أى كلمة أخرى تضعها موضع « الاصباح » فى دلالتها على الحركة والانبثاق ، وفى بث حقيقة المعنى المطلوب ، ثم فتش فى اللغة كلها عن كلمة تضعها فى مكان « سكنا » فيها هدوءا ، ولينها المنبعث من فتحاتها المتتابعة وفيها ما تبثه من الصورة فى الخيال والنفس ، ثم ابحث ما شئت عن كلمة أخصر وأدل وأجمع من هذه الكلمة العجيبة : « حسبانا » •

ابحث عن كل ذلك ، وقلب الآية على ما تختاره وتراه من الوجوه ، فستجد أن اللغة كلها أعجز من أن تأتى لها بالفاظ مثلها أو خير منها ، ومهما غيرت فى الآية أفسحت من بهائها ، ونقصت من روعتها واشراقها • والقرآن كله مثال على ذلك ، فخذ ما شئت منه ، وقدر فيه ما قلت لك تجد أن كل كلمة منه انما تستقر فى مكانها لا يطولها أى تغيير أو تحوير • هذا فى حين أنك لو تناولت أى قطعة بلاغية أخرى ، أيا كان صاحبها ، وعرضت ألفاظها وتركيبها للتبديل والتحسين فانك واجد الى ذلك سبيلا عريضة فكل قطعة بلاغية مهما تناهت فى الجودة قابلة للتبديل والتحسين ، خاضعة للبحث والنقد • فهذا هو أساس الإعجاز القرآنى ، وهو المصدر الاول لمختلف مظاهر الإعجاز التى سنتحدث عنها ، واليه مرد كل ما يبحث فيه العلماء من خصائص أسلوبه وميزاته البلاغية (٢) •

واليك الآن بيان هذه المظاهر •

(١) الانعام : ٩٦

(٢) من روائع القرآن للبوطى ص ١٤٠ - ١٤١ ، واعجاز القرآن للرافعى

ص ٢٨٣ وما بعدها •

المظهر الاول

« الخصائص المتعلقة بأسلوبه »

ظهر لنا فى الفصل السابق الذى تحدثنا فيه عن « الذين كتبوا فى الاعجاز » أن راء هؤلاء العلماء الأجلاء تدور حول فكرة واحدة هى أن القرآن الكريم معجز بأسلوبه الفريد ، ونظمه البديع الذى هو فوق طاقة البشر ، اذن فهذا الاسلوب هو « مادة الاعجاز » واذا كان كذلك ، فلا بد للباحث فى هذا المجال من نظرة فى أسلوب القرآن الكريم يتعرف بها على خصائص هذا الاسلوب ، ومميزاته ، واليك هذه الخصائص :

الخاصة الاولى : أن هذا الاسلوب يجرى عن نسق بديع خارج عن المعروف من نظام جميع كلام العرب ، ويقوم فى طريقته التعبيرية على أساس مبادئ للمألوف من طرائقهم . بيان ذلك أن جميع الفنون التعبيرية عند العرب لا تعدو أن تكون نظماً أو نثراً ، وللنظم أعاريض ، وأوزان محددة معروفة ، وللنثر طرائق من السجع ، والارسال وغيرها مبينة ومعروفة . والقرآن ليس على أعاريض الشعر فى رجزه ولا فى قصيده ، وليس على سذن النثر المعروف فى ارساله ولا فى تسجيعة ، اذ هو لا يلتزم الموازين المعهودة فى هذا ولا ذاك ، ولكنك مع ذلك تقرأ بضغ آيات منه فتشعر بتوقيع موزون ينبعث من تتابع آياته ، بل يسرى فى صياغته ، وتالف كلماته ، وتجد فى تركيب حروفه تنسيقاً عجيباً بين الرخو منها والشديد ، والمجهور ، والمهموس ، والممدود ، والمقطوع ، بحيث يؤلف اجتماعها الى بعضها لحناً مطرباً يفرض نفسه على صوت القارئ العربى كيفما قرأ ، طالما كانت قراءته صحيحة . ومهما طفت بذنرك فى جوانب كتاب الله تعالى ومختلف سوره وجدته مطبوعاً على هذا النسق العجيب فمن أجل ذلك تحير العرب فى أمره ، اذ عرضوه على موازين الشعر فوجدوه غير خاضع لأحكامه ، وقارنوه بفنون النثر فوجدوه غير لاحق بالمعهود من طرائقه فكان أن انتهى الكافرون منهم الى أنه السحر ، واستيعن المنصفون منهم بأنه تنزيل من رب العالمين .

واليك أيها القارئ الكريم بعض الأمثلة التى توضح هذه الحقيقة ، وتجليها ، قال تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ، وفى آذاننا وقر ، وهن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون . قل انما أنا بشر مثلكم

«يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل
للمشركين» (١) .

وهذه الآيات بتأليفها العجيب ، ونظمها البديع حينما سمعها عتبة بن أبي
ربيعه وكان من أساطين البيان استولت على أحاسيسه ، ومشاعره ، وطار
بلبة ، ووقف أمامها فى ذهول ، وحيرة ، ثم عبر عن حيرته وذهوله بقوله :
« والله لقد سمعت من محمد قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر
ولا بالسحر ولا بالكهانة .. والله ليكونن لقوله الذى سمعت (١) نبأ
عظيم » .

واليك سورة من سوره القصار تتجلى فيها هذه الحقيقة أمام العيان ،
من ينكرها فكأنما ينكر الشمس فى وضوح النهار .

بسم الله الرحمن الرحيم : « والشمس وضحاها • والقمر اذا تلاها •
والنهار اذا جلاها • والليل اذا يغشاها • والأسماء وما بناها • والأرض
وما طحاها • ونفس وما سواها • فأنهها فجورها وتقواها • قد أفلح من
زكاها • وقد خاب من دساها • كذبت ثمود بطغواها • اذا انبعث أشقاها •
فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها • فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم
بذنوبهم فسواها • ولا يخاف عقباها » (٢) .

تأمل هذه الآيات ، وكلماتها ، وكيف صيغت هذه الصياغة العجيبة ؟
وكيف تألفت كلماتها وتعانقت جملها ؟ وتأمل هذا النغم الموسيقى العذب
الذى ينبع من هذا التألف البديع ، انه اذا لامس أوتار القلوب : اهتزت له
العواطف ، وتحركت له المشاعر ، وأسال الدموع من العيون ، وخرت لعظمته
جباة أساطين البيان • أشهد بالله انه النظم الالهى الذى لا يقدر على مثله
مخلوق .

وهذه الحقيقة توجد فى سائر كتاب الله لا تتخلف فى سورة من سوره
ولا فى آية من آياته ، ومن أجل ذلك عجز أساطين البيان عن الاتيان بأقصر
من مثله .

(١) سورة فصلت : ١ - ٥

(١) ارجع الى القصة تجدها مفصلة فى الفصل الاول من هذا البحث

« الإعجاز - نشأته - تطوره - وجوهه » .

(٢) سورة الشمس .

وفى هذا يقول الرافعى رحمه الله : « وذلك أمر متحقق بعد فى القرآن الكريم : يقرأ الانسان طائفة من آياته ، فلا يلبث أن يعرف لها صفة من الحسن ترافد ما بعدها وتمده ، فلا تزال هذه الصفة فى لسانه ، ولو استوعب القرآن كله ، حتى لا يرى آية قد أدخلت الضيم على أختها ، أو نكرت منها ، أو أبرزتها عن ظل هى فيه ، أو دفعنها عن ماء هى اليه : ولا يرى ذلك كله الا سواء وغاية فى الروح والنظم والصفة الحسية ، لا يغتمض فى هذا الا كاذب على دخلة ونية ، ولا يهجن منه الا أحق على جهل وغرارة ، ولا يمتري فيه الا عامى ، أو أعجمى ، وكذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون » (١) .

الخاصة الثانية : هى أن التعبير القرآنى يظل جاريا على نسق واحد من السمو فى جمال اللفظ ، وعمق المعنى ودقة التركيب ورقة الصياغة وروعة التعبير ، رغم تنقله بين موضوعات مختلفة من التشريع والقصص والمواعظ والحجاج والوعد والوعيد ، وتلك حقيقة شاقة ، بل لقد ظلت مستحيلة على النظم لدى فحول علماء العربية والبيان .

وبيان ذلك أن المعنى الذى يراد عرضه ، كلما كان أكثر عموما وأغنى أمثلة وخصائص كان التعبير عنه أيسر ، وكانت الالفاظ اليه أسرع ، وكلما ضاق المعنى وتحدد ، وفق وتعمق كان التعبير عنه أشق ، وكانت الالفاظ من حوله أقل .

ولذا كان أكثر الميادين الفكرية التى يتسابق فيها أرباب الفصاحة والبيان هى ميادين الفخر والحماسة والموعظة والمدح والهجاء ، وكانت أقل هذه الميادين اهتماما منهم ، وحركة بهم ميادين الفلسفة والتشريع ومختلف العلوم ، وذلك هو السر فى أنك قلما تجد الشعر يقتحم شيئا من هذه الميادين الخالية الأخرى .

ومهما رأيت بليغا كامل البلاغة والبيان ، فانه لا يمكن أن يتصرف بين مختلف الموضوعات والمعانى على مستوى واحد من البيان الرفيع الذى يملكه ، بل يختلف كلامه حسب اختلاف الموضوعات التى يطرقها ، فربما جاء بالغاية من البراعة فى معنى من المعانى ، فاذا انصرف الى غيره انخذل عن تلك الغاية ، ووقف دونها . غير أنك لا تجد هذا التفاوت فى كتاب الله تعالى ، فأنت تقرأ آيات منه فى الوصف ، ثم تنتقل الى آيات أخرى فى القصة ، وتقرأ بعد ذلك مقطعا فى التشريع وأحكام الحلال والحرام ، فلا تجد الصياغة خلال ذلك الا فى

أوج رفيع عجيب من الاشراق والبيان • وتتنظر فتجد المعانى كلها لاحقة بها
شامخة اليها • ودونك فاقراً ما شئت من هذا الكتاب المبين متنقلاً بين مختلف
معانيه ، وموضوعاته لتتأكد من صدق ما أقول ، ولتلمس برهانه عن تجربة
ونظر (١) •

ويقول فى معرض حديثه عن « روح التركيب » فى أسلوب القرآن :
« لا ترى غير صورة واحدة من الكمال ، وان اختلفت أجزاؤها فى جهات التركيب
وموضع التأليف وألوان التصوير وأغراض الكلام » (٢) •

ويقل فى معرض حديثه عن « روح التركيب » فى أسلوب القرآن :
« وهذه الروح لم تعرف قط فى كلام عربى غير القرآن ، وبها انفرد نظمها ،
وخرج مما يطيقه الناس ، ولولاها لم يكن بحيث هو ، كأنما وضع جملة واحدة
ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين ، اذ نراه ينظر فى التركيب الى نظم الكلمة ،
وتأليفها ، ثم الى تأليف هذا النظم ، فمن هنا تعلق بعضه على بعض ، وخرج
فى معنى تلك الروح صفة واحدة هى صفة اعجازه فى جملة التركيب ، وان
كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التى يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي
العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب : كالقصص والمواظ والحكم
والتعليم ، وضرب الأمثال الى نحوها مما يقدر عليه •

ولولا تلك الروح لخرج أجزاء متفاوتة على مقدار ما بين هذه المعانى ،
ومواقفها فى النفوس ، وعلى مقدار ما بين الالفاظ والأساليب التى تؤدبها
حقيقة ومجازاً ، كما تعرفه من كلام البلغاء عند تباين الوجوه التى يتصرف فيها ،
على أنهم قد رفعوا عن أنفسهم وكفوها أكبر المؤنة فلا يألون أن يتوخوا بكلامهم
الى أغراض ومعان يعذب فيها الكلام ويتسق القول وتحسن الصنعة مما يكون
أكبر حسنة فى مادته اللغوية ، وذلك شائع مستفيض فى مآثور الكلام عنهم ،
ثم هم مع هذا يستوفون المعنى الواحد على وجهه ، فاذا تحولوا الى غيره ،
وأفضوا بالكلام الى سواء رأيت من اقتضابهم فى الأسلوب ومن التناكر فى
وضع المعنى الى المعنى ما يشبه فى اثنين متقابلين من الناس منظر قفا
الى وجه •

وعلى أننا لم نعرف بليغا من البلغاء تعاطى الكلام فى باب الشرع وتقرير
النظر ، وتبيين الأحكام ونصب الأدلة واقامة الاصول والاحتجاج لها والرد

(١) من روائع القرآن للبوطى ص ١١٢ - ١١٣

(٢) اعجاز القرآن ص ٢٧٤ وتاريخ آداب العرب للرافعى ج ٢ ص ٢٤١

على خلافها الا جاء بكلام نازل عن طبقة كلامه فى غير هذه الابواب ، وأنت قد تصيب له فى غيرها اللفظ الحر والاسلوب الرائع والصنعة المحكمة والبيان العجيب ، والمعرض الحسن فاذا صرت الى ضروب من تلك المعانى ، وقعت ثمة على شىء كثير من اللفظ المستكره ، والمعنى المستغلق ، والسياق المضطرب ، والاسلوب المتهافت والعبارات المبتذلة ، وعلى النشاط متخاذلا ، والعري محلوقة ، والوثيقة واهنة ، وتبيت كلاما لا تطمئن اليه فى أكثر جهاته حتى لتعجب أن صاحبه وصاحب ذلك الكلام رجل واحد» (١) .

الخاصة الثالثة : أن معانيه مصوغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافتهم وعلى تباعد أزمנתهم وبلدانهم ، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم .

خذ آية من كتاب الله مما يتعلق بمعنى تتفاوت فى مدى فهمه العقول ، ثم اقرأها على مسامع خليط من الناس يتفاوتون فى المدارك ، والثقافة ، فستجد أن الآية تعطى كلا منهم من معناها بقدر ما يفهم ، وأن كلا منهم يستفيد منها معنى وراء الذى انتهى عنده علمه .

ولسنا نقصد أن الآية تحتل بذلك وجهين متناقضين أو فهمين متعارضين ، بل هو معنى واحد على كل حال ، ولكن له سطحا وعمقا وجذورا يتضمنها جميعا أسلوب الآية . فالعامى من الناس يفهم منه السطح القريب ، والمثقف منهم يفهم مدى معينا من عمقه أيضا ، والباحث يفهم منها جذور المعنى كله .

وخذ ان شئت آية أخرى من كتاب الله مما يتعلق بمعنى يتطور مع امتداد الزمن ، ثم ابحث عن معناها فى مختلف العصور ، فانك تجد الصدر الأول من المسلمين يفهمون منها المعنى المراد كما هو فى طورهم وعصرهم ، وتجد من بعدهم يفهمون معناها كما تطور فى زمانهم ، على أن كلا الفهمين من الدولات العربية للآية ، وليس من قبيل التكلف أو تحميل اللفظ ما لا يحمل ، ولكن الفهم الثانى كان مطويا عن السابقين لعدم وجود ما ينبههم اليه اذ ذاك

وفى القرآن الكثير من هذا وذاك فلنعرض أمثلة منه :

(١) اعجاز القرآن ص ٢٧٩ - ٢٨٤ وتاريخ آفليب الغرب للرافعى ج ٤

من القبيل الأول قوله تعالى : « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقهرا منيرا » (١) فهذه الآية تصف كلا من الشمس والقمر بمعنيين لهما سطح قريب يفهمه الناس كلهم ، ولها عمق يصل اليه المتأملون والعلماء ، ولها جنور بعيدة يفهمها الباحثون والمتخصصون ، والآية تحمل بصياغتها هذه الدرجات الثلاث للمعنى ، فتعطى كلا حسب طاقته وفهمه •

فالعامى من العرب يفهم منها أن كلا من الشمس والقمر يبعثان بالضياء الى الأرض ، وانما غاير فى التعبير عنه بالنسبة لكل منهما تنويعا للفظ • وهو معنى صحيح تدل عليه الآية ، والمتأمل من علماء العربية يدرك من وراء ذلك أن الآية تدل على أن الشمس تجمع الى النور الحرارة فلذلك سماها سراجا ، والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه ، وهو أيضا معنى صحيح تدل عليه الآية دلالة لغوية واضحة • أما الباحث المتخصص فى شئون الفلك فيفهم من الآية اثبات أن القمر جرم مظلم وانما يضىء بما ينعكس عليه من ضياء الشمس التى شبهها بالسراج بالنسبة له ، وهو أيضا معنى صحيح تدل عليه الآية بلغتها وصياغتها ، فأنت تقول : غرفة منيرة اذا انعكس عليها الضوء من سراج فى وسطها ، ولا تقول قبس منير ، اذ النور ينبعث من حقيقته وداخله ، بل تقول قبس مضىء •

فالآية تتضمن هذه الدلالات الثلاث جملة واحدة ، ولكنها - بأسلوبها العجيب - لا تخاطب الناس الا بما يدركونه منها كلا حسب استعداده وطاقته فكره ، وبذلك تكون الآية خطابا مفيدا لأضراب الناس كلهم •

ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى : « والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها » (٢) يقرأ هذه الآية العربى الذى لا يعلم عن الأرض وهيئتها الا الشكل الذى يراه منها ، وهو الامتداد والانبساط ، فيفهم من قوله « دحاها » معنى الانبساط والامتداد ، وهو فهم صحيح تدل عليه الكلمة بمعناها اللغوى القريب • ثم يقرأها عالم الفلك ، أو المثقف العادى فى هذا العصر ، فيفهم من قوله « دحاها » معنى الاستدارة والتكوير ، وهو أيضا فهم صحيح للكلمة ، اذ هي تحمل فى آن واحد كلا من معنى الاستدارة والانبساط ، وهو أدق ما توصف به الأرض • ولقد استعملت هذه الكلمة بكلا معنيها فى هذه الأبيات لابن الرومى :

(١) الفرقان : ٦١

(٢) النازعات : ٣٠ ، ٣١

ان أنس لم أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة وشك اللحم بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة فى صفحة الماء يلقي فيه بالحجر (١)

ومن القبيل الثانى قوله تعالى : « **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزنية ويخلق ما لا تعلمون** (٢) » .

لقد كان يقرأ هذه الآية أسلافنا ، فلا يعنيه من فهمها الا قوله : **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزنية** . اذ كان ذلك القدر هو المنطبق على واقع حياتهم فيما تقصد اليه الآية من الحديث عن وسائل ركوب الانسان ، وما فى ذلك من نعمة الله عليه . فاذا قرأوا الجملة التى تليها وهى : « **ويخلق ما لا تعلمون** » تاهوا بين تاويل وتفسيرات مختلفة . ويقرأها انسان هذا العصر فلا يشك فى أن المراد بها هذه الوسائل الحديثة الأخرى التى أضيفت الى الوسائل السابقة . وهكذا نجد الآية خطابا لأهل العصور المتتالية كلها ، وليست خاصة بقوم دون قوم أو جيل دون جيل (٣) .

وهذه الخاصة تصيف الى اعجازه البلاغى المتمثل فى نظمه البديع ، وتركيبه العجيب اعجاز آخر يتمثل فى عمق معانيه وتطورها مع الزمن ، وسبقها للعقل الانسانى ، واستيعابها للنظريات العلمية والاختراعات الحديثة مما يدل على أنه ليس من وضع البشر . وانما هو تنزيل من رب العالمين .

يقول الرافعى رحمه الله « فاذا ثبت للقرآن الجيد سبقه ما تتوهمه زما ، وتقدمه حدودا من آخر حدود العقل الانسانى ، على حين أنه أنزل فى حدود غيرها بعيدة ، ضعيفة لا علم فيها ، ولا آلات علم ، - فحسبك بذلك وحده برهانا على أن هذا الكتاب جملة من الأزل تحولت فى معنى ومنطق ، وجاءت لغرض وغاية ، ولامست الناس لتكون فيهم سببا لرسوخ الايمان ، ثم نظاما للايمان نفسه ، ومتى رسخ الايمان ، فقد رسخ العلم كله فى النفس الانسانية . وهذا عندنا من بعض السر فيما جاء فى الكتاب الكريم من آيات السموات والارض والنظر

(١) تشترك مادة داح ودحى فى الدلالة على الاتساع والعظم والانبساط والاستدارة . قال فى شرح القاموس : وأنداح بطنه : عظم واسترسل كانداح واندحى ودحى ، وبطن منداح : خارج مدور . وذكر فى اللسان نحو ذلك ويشبه أن تكون الكلمتان فى أصلهما من مادة واحدة .

(٢) النحل : ٨

(٣) من روائع القرآن للبوطنى ص ١١٤ - ١١٦

والاستدلال ، ومن طرق التعبير ، النفسى بالامثال والقصص ونحوها(٤) » •
ويقول فى موضع آخر : « ثم ان فى ذكر الآيات الكونية والعلمية فى القرآن دليلا على اعجاز آخر فهو بذلك يومئ الى أن الزمن متجه فى سيره الى الجهة العلمية القائمة على البحث والدليل •

وأن الانسانية ذاهبة فى أرقى عصورها الى هذا المذهب •• فوجود ذلك فيه قبل أن يوجد ذلك فى الزمن بأربعة عشر قرنا شهادة ناطقة من الغيب لا يبقى عليها موضع شبهة(١) » •

ولولا أن هذه المعجزات العلمية بعيدة عن بحثى لذكرت الكثير منها ، ومن جريد الاطلاع عليها فعليه بكتاب : « الاسلام والطب الحديث » للدكتور عبد العزيز اسماعيل باشا ، وكتاب : « التبيان فى علوم القرآن » للصابونى خفى هذين الكتابين كثير من المعجزات العلمية فى القرآن الكريم •

الخاصة الرابعة : وهى ظاهرة التكرار ••

وفى القرآن من هذه الظاهرة نوعان :

أحدهما : تكرار بعض الألفاظ أو الجمل •

وثانيهما : تكرار بعض المعانى كالأفاصيص ، والأخبار •

فالنوع الأول : يأتى على وجه التوكيد ، ثم ينطوى بعد ذلك على نكت بلاغية ، كالتهويل ، والانداز ، والتجسيم ، والتصوير ، وللتكرار أثر بالغ فى تحقيق هذه الأغراض البلاغية فى الكلام ، ومن أمثله فى القرآن الكريم قوله تعالى : « الحاقة ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة ، كذبت ثمود وعاد جالقارعة » وقوله تعالى : « سأسئله سقر ، وما أدراك ما سقر ، لاتبقى ولا تذر » وقوله تعالى : « انه فكر ، وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر » وقوله تعالى : « أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الاغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار » وقوله تعالى : « وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ، وما أنت جسيم من فى القبور » ولا يتسع هذا المقام لسرد ما فى القرآن من هذا التكرار فأرجع اليه ان شئت فى مظانه وأماكنه(٢) •

(٤) تاريخ آداب العرب ص ١٣٠ ج ٢

(١) تاريخ آداب العرب ص ١٣١ ج ٢

(٢) انظر فى ذلك مشكل القرآن لابن قتيبة ، واعجاز القرآن للباقلانى ،

والبرهان للزركشى •

والنوع الثانى : وهو تكرار بعض القصص والأخبار يأتى لتحقيق غرضين هامين :

الأول : انهاء حقائق الدين ومعانى الوعد والوعيد الى النفوس بالطريقة التى تألفها ، وهى تكرار هذه الحقائق فى صور وأشكال مختلفة من التعبير والأسلوب ، ولقد أشار القرآن الى هذا الغرض بقوله : « ولقد صرفنا فيه من الوعيد لهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا (١) » .

قال الزركشى : « وحقيقته - أى حقيقة التصريف - إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى خشية تناسى الأول لطول العهد به (٢) » .

الثانى : اخراج المعنى الواحد فى قوالب مختلفة من الالفاظ والعبارة ، وبأساليب مختلفة تفصيلا واجمالا ، وتصريف ، الكلام فى ذلك حتى يتجلى اعجازه ، ويستبين قصور الطاقة البشرية عن تقليده أو اللحاق بشأوه ، اذ من المعلوم أن هذا الكتاب انما تنزل لاقتناع العقلاء من الناس بأنه ليس كلام بشر ، ولا لزامهم بالشرعية التى فيه ، فلا بد فيه من الوسائل التى تفى بتحقيق لإوسيلة الى كلا الأمرين .

ومن هنا كان من المحال أن تعثر فى القرآن كله على معنى يتكرر فى أسلوب واحد من اللفظ ، ويدور ضمن قالب واحد من التعبير ، بل لابد أن تجده فى كل مرة يلبس ثوبا جديدا من الأسلوب ، وطريقة التصوير والعرض ، بل لابد أن تجد التركيز فى كل مرة منها على جانب معين من جوانب المعنى أو القصة ولنضرب لك مثلا على هذا الذى نقول : بقصه موسى عليه السلام اذ انهأ أشد القصص فى القرآن تكرارا ، فهى من هذه الوجهة تعطى فكرة كاملة على هذا التكرار .

وردت هذه القصة فى حوالى ثلاثين موضعا ، ولكنها فى كل موضع تلبس أسلوبا جديدا وتخرج اخراجا جديدا يناسب السياق الذى وردت فيه ، وتهدف الى هدف خاص لم يذكر فى مكان آخر ، حتى لكأننا أمام قصة جديدة لم نسمع بها من قبل .

(١) طه : ١١٣

(٢) البرهان ج ٣ ص ١٠

واليك مثلاً آخر : هو قصة نوح فقد وردت في سورة هود(٢) ، ثم أعيد ذكرها في سورة القمر(٣) اقرأ أنت نفسك القصة في السورتين ، ثم تأمل في كلا النصين ، وقارن بين أسلوب كل منهما ، وطريقته في العرض والتصوير والجانب المعنوي الذي يركز عليه التعبير في كل منهما ، فانك ان تأملت في ذلك جيداً تخيلت أنك انما تقرأ في المرة الثانية خبراً جديداً يشوقك أمره ، وتفجؤك أحداثه ، وشعرت أن النفس بحاجة الى أن يعرض عليها هذا الخبر من كلا الجانبين ، وبكلا الأسلوبين .

الخاصة الخامسة ، وهي تتداخل أبحاثه ، ومواضيعه في معظم الأحيان فان من يقرأ هذا الكتاب المبين لا يجد فيه ما يجده في عامة المؤلفات والكتب الأخرى من التنسيق والتبويب حسب المواضيع ، وتصنيف البحوث مستقلة عن بعضها ، وانما يجد عامة مواضيعه وأبحاثه لاحقة ببعضها دونما فاصل بينها ، وقد يجدها متداخلة في بعضها في كثير من السور والآيات .

وهذه الخاصة قد خيلت لبعض محترفي الغزو الفكري من المبشرين والمستشرقين وأدناهم وذبولهم ممن يدورون في فلكهم أن في القرآن ثلثة يمكن الدخول منها الى اصطناع نقد أو محاولة تهديم ، أو بث تشكيك ، فأخذوا يتساءلون عن سبب هذا التداخل والتماذج في معاني القرآن ، ثم راحوا يجيبون عن تساؤلهم هذا بأنها البدائية والبساطة في منهج البحث ، وأن القرآن لا يعدو كونه مجموعة أفكار منتثرة أنتجها فكر انسان .

والحقيقة أن هذه الخاصة في القرآن الكريم ، انما هي مظهر من مظاهر تفرد ، واستقلاله عن كل ما هو مألوف ومعروف من طرائق البحث والتأليف ، هذا شيء ، وهناك شيء آخر هو أن من الخطأ في أصل النقد والبحث أن نحاكم القرآن في منهجه وأسلوبه الى ما تواضع عليه الناس اليوم أو قبل هذا اليوم . أو الى ما سيتواضعون عليه مع تطور الزمن - من طرائق البحث والتأليف وتنسيق المعاني فهذا الذي يتوافق عليه الكاتبون من تقسيم كتبهم الى أبواب وفصول ، ثم تضمين كل فصل منها لجملة معينة من الأبحاث والمعاني ، ليس مرده الى أمر الزامي ، أو مثل أعلى يفرض عليهم ذلك ، وانما الأمر فيه تابع للاغراض المتعلقة به ، وهو في جملته عرق يعتادونه ، وطور

(٣) وهي في جملتها اثنتان وعشرون آية محصورة ما بين قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم منه نذير مبين » وقوله تعالى : « تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك .. الآية » .
(٣) من الآية ٩ الى الآية ١٥

يمرون عليه ، ويجتازونه بعد حين الى غيره ، فما هى الحقيقة الثابتة التى تلزم كتاب الله تعالى بأن يسير فى منهجه على طور من أطوار هؤلاء العباد ، وأن يتبع تنسيقهم الذى يضعون ، أو أن تقتضف أبحاثه ومعانيه حسب المنهج الذى يشاؤون ؟ هذا الى أن المناهج تتناسخ والاساليب تتطور كما هو معروف ، على أن هذه الخاصة تابعة لحكمة عليا يدور معها المعنى القرآنى كله . ذلك أن جملة ما فى القرآن من مختلف المواضيع والمعانى الجزئية ، إنما يدور جميعه على معنى كلى واحد ، هو دعوة الناس الى أن يكونوا عبيدا لله بالفكر والاختيار كما خلقهم عبيدا له بالجبر والاضطرار ، وأن يدركوا أن أمامهم حياة ثانية بعد حياتهم هذه ، وأن يستيقنوا ضالة هذه الحياة بالنسبة لتلك فى كل من خيرها وشرها وسعادتها وشقتها . فالقرآن شأنه أن يبيت هذا المعنى الكلى الخطير من خلال جميع ما يعرضه من الابحاث والمواضيع المختلفة من تشريع ووعد ووعيد ، وقصة وأمثلة ووصف ، وإنما يتحقق ذلك بهذا النسق الذى جرى عليه من التداخل والتماذج فى المعانى .

فهو حينما يبدأ بعرض قصة لا يدعك - ولو فى مرحلة من مراحلها تنسى - ذلك المعنى الكلى الذى ذكرناه ، فهو يخللها بما ليس منها من تهديد أو وعد ووعيد أو نصيحة أو وعظ تحقنا للغرض الذى من أجله تساق القصة ، وحفظا للفكر أن يتشتت مع أجوائها وأحداثها فينس مساقها الأصلى .

وهو حينما يشرح لك أحكاما فى العبادات أو المعاملات أو غيرها ، يسلك بك أيضا نفس النهج فهو يحاذر أن تستغرق فى التأمل فى هذه الأحكام من حيث هى علم أو فن برأسه ، كما قد يحصل مع من ينكب على دراسة هذه الأحكام فى الكتب العلمية الخاصة بها ، فيوصلها بايات ليست منها ، فيها وعد أو وعيد أو حديث عن الآخرة أو دليل على وجود الله وعظمته ، ليتنبه الفكر ، ويظل مستيقظا للحقيقة الكلية الكبرى التى تطوف بها جميع المعانى والأبحاث .

ولو أن القرآن اتبع فى عرض معانيه ، هذا الذى يهلكه الناس فى تاليفهم وأبحاثهم ، فأفرد فصولا خاصة لعرض الاحكام والتشريع ، ثم ميز فصلا آخر للقصص ، وجاء بفصل ثالث فى وصف المغيبات كالجنة والنار وهكذا . . لو درج القرآن على ذلك لفات تحقيق الغرض الذى ذكرناه ولما أمكن أن تكون هذه الفصول المتناثرة انعكاسا لمعنى كلى واحد تشترك كلها فى بئه والتوجيه اليه ، ولئن أمكن أن يتذكر القارئ ذلك فى تمهيد أو فى فصل من الفصول فليسرعان ما ينسأه عندما يستغرق فى قراءة أو دراسة الفصول الأخرى . وإن هذا الذى نقول ، ليس من الحقائق المستعصية أو الخافية على من يصدق التأمل والنظر فى كتاب الله تعالى (١) .

المظهر الثانى

المفردة القرآنية

إذا تأملت فى الكلمات التى تتألف منها الجمل القرآنية رأيتها تمتاز بمميزات ثلاث رئيسية هى :

- ١ - جمال وقعها فى السمع .
- ٢ - اتساقها الكامل مع المعنى .
- ٣ - اتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى من المعانى والدلولات .

وقد نجد فى تعابير بعض الأدباء والبلغاء كالجاحظ والمتنبى كلمات تتصف ببعض هذه الميزات الثلاث أما أن تجتمع كلها معا ، وبصورة مطردة لا تتخلف أو تشذ . فذلك مما لم يتوافر الا فى القرآن الكريم .

واليك بعض الامثلة القرآنية التى توضح هذه الظاهرة وتجليها :

أنظر الى قوله تعالى فى وصف كل من الليل والصبح : « **والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس (١)** » ألا تشم راحة المعنى واضحا قويا من كل من هاتين الكلمتين : عسعس ، وتنفس ؟

ألا تشعر أن الكلمة تبعث فى خيالك صورة المعنى محسوسا مجسما دون حاجة للرجوع الى قواميس اللغة ؟

وهل فى مقدورك أن تصور اقبال الليل ، وتمدده فى الآفاق المترامية بكلمة أدق وأدل من « عسعس » .

وهل تستطيع أن تصور انفلات الضحى من مخبأ الليل وسجنه بكلمة أروع من « تنفس » ؟

انك لو فتشت فى معاجم اللغة وقواميسها لا تجد فيها أدق من هاتين الكلمتين فى التعبير عن هذين المعنيين (٢) .

(١) التكوير : ١٧ ، ١٨

(٢) من روائع القرآن ص ١٤٢ ، ١٤٣

اقرأ قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ : انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ (٣) » •

وادرس الاداء الفنى الذى قامت به لفظة « اثَّاقَلْتُمْ » بكل ما تكونت به من حروف ، ومن صورة ترتيب هذه الحروف ، ومن حركة التشديد على الحرف اللثوى « الثاء » والمذ بعده ، ثم مجيء القاف الذى هو أحد حروف القلقلة ، ثم التاء المهموسة ، والميم التى تنطبق عليها الشفتان ، ويخرج صوتها من الانف ، ألا تجد نظام الحروف ، وصورة أداء الكلمة ذاتها أوحى اليك بالمعنى ، قبل أن يرد عليك المعنى من جهة المعاجم ؟ ألا تلحظ فى خيالك ذلك الجسم الماثل ، يرفعه الرافعون فى جهد فيسقط فى أيديهم فى ثقل ؟ ألا تحس أن البطء فى تلفظ الكلمة ذاتها يوحي بالحركة البطيئة التى تكون من الماثل ؟

جرب أن تبدل المفردة القارئية ، وتحل محلها لفظة « ثَثَّاقَلْتُمْ » ألا تحس أن شيئاً من الخفة والسرعة ، بل والنشاط أوحى به « ثَثَّاقَلْتُمْ » بسبب رصف حروفها ، وزوال الشدة ، وسبق التاء قبل الثاء ؟ اذن فالبلاغة تتم فى استعمال « اثَّاقَلْتُمْ » للمعنى المراد ، ولا تكون فى « ثَثَّاقَلْتُمْ » .

تأمل قوله تعالى : « فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ (١) » تجد لفظة « يَتَرَقَّبُ » ترسم بظلمها الذى تلقىه فى الخيال هيئة الحذر المتلفت فى المدينة التى يشيع فيها الأمن والاطمئنان فى العادة •

اقرأ قوله تعالى : « يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطَهَّنَةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي (٢) » •

وتأمل مَا ضَمَّنْتَ مِنْ مَدُود : يَا - مَا - جَعَى - إِلَى - خَلَى - فَيَ - عَبَا - دَى - خَلَى - تَى وَمَا ضَمَّتْ مِنْ تَشْدِيد : أَيْتَهَا - النَّفْسُ - الْمُطَهَّنَةُ - جَنَّتِي •

وما ضمت من حركات الكسر : جَعَى - رَبِّكِ - خَلَى - فَيَ - دَى - نَتَى

ثم تصور أن الميت مسجى فى كفن ، والقبر فاغراه ، ينتظر ضيفه الجديد ، لبضمه حيناً من الزمن ، ثم يسلمه الى الأبدية الخالدة التى لا نهاية لها ، وتصور كذلك الدموع الصامته يذرفها الأهل والاحباب لفراق عزيز أو حبيب ، عاش معهم حيناً من الزمن ، ثم فارقهم الى صفر طويل ، لا عودة منه ، وتصور

(٣) التوبة : ٣٨

(١) القصص : ١٨

(٢) الفجر : ٢٧-٣٠

الصراع النفس فى قلوبهم ، فرح فيما هو مقبل عليه من رحمة الله ونعيمه ،
وحزن انساني لا بد منه عند الوداع ، فهل تجد أوقع أثرا ، وأدق تعبيراً عن
هذا الموقف الجليل وهذا الحزن ، وتلك الدموع ، وذلك الامل العريض مما جاءت
به تلك المفردات بكل ما حملت من مدود ، وشدات وغنات ، وحركات كسر ،
ونونات ؟

وجرب أن تعيد قراءة الآيات مرات عدة ، وتأمل فى الحروف ورصفها ،
والمفردات كل منها على حدة ، ثم فى مجموعها وتناسقها ، فلسوف تجد الحزن ،
والرضى ، والطأنينة قد امتزجت امتزاجاً تاماً ، وهيئات هيات لانسان
- مهما - أوتى حظاً من الذوق والأدب - أن يبلغ الى هذا المستوى المعجز .
استمع الى قوله تعالى : « **واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء
العذاب ، يذبحون أبناءكم ، ويستحبون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم
عظيم (١)** » ان القرآن يستخدم مفردة واحدة « يذبحون » مشددة « الباء »
ولم يستخدمها دون تشديد مراعيًا بذلك تصوير ما حدث أولاً ، وكثرة ما حدث
ثانياً ، ونوع ما حدث ثالثاً ، ولو جئنا بغيرها ما سد مسدها .

وانظر قوله تعالى : « **انا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، فوقاهم
الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا (٢)** » ألا تجد مفردة « العبوس »
فيها دقة بالغة حين صورت نظرة الكافرين الى ذلك اليوم ، انهم يجدونه عبوساً
مكفهرًا ، وما أشد اسوداده ، فيه يفقد المرء الأمل والرجاء ، وكلمة « قمطريراً »
بثقل طائها مشعرة بثقل هذا اليوم . وفى كلمتى « النضرة والسرور » تعبير
دقيق عن المظهر الحسى لهؤلاء المؤمنين ، وما يبدو على وجوههم من الاشراق ،
وعما يملأ قلوبهم من البهجة .

وانظر قوله تعالى : « **فون زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاء (٣)** »
تجد كلمة « زحزح » تصور بظلالها وجرسها مشهد الابعاد والتحنية بكل
ما يقع فى هذا المشهد من أصوات ، وما يصحبه من زعر الذى يمر بحسيس
النار ويسمعه ويكاد يصله ، ولو فتشت جميع معاجم اللغة وقواميسها لا تجد
كلمة تصور هذا المشهد الا كلمة « زحزح » .

وانظر الى القرآن حينما يصف دعوة امرأة العزيز للنسوة اللائى تحدثن ،
مفتقدات عن مراودتها لفتاها يوسف عن نفسه ، الى جلسة لطيفة رائعة فى
حياتها لتطلعهن فيه على يوسف وجماله حتى يعذرنها فيما أقدمت عليه .

(١) البقرة : ٤٩٠

(٢) الانسان : ١٠

(٣) آل عمران : ١٨٥

لقد قدمت لهن فى ذلك المجلس طعاما ولا شك ، ولقد أوضح القرآن هذا ، ولكنـه لم يعبر عن ذلك بالطعام ، فهذه انما تصور شهوة الجوع ، وتنتقل بالفكر الى « المطبخ » بكل ما فيه من ألوان الطعام ورائحته وأسبابه . وهى صورة لا تتفق مع ما تريد الآية أن تضعه أمام خيالك من مظهر المجلس الأنيق الذى بضم نسوة بينهن امرأة العزيز يطلع عليهن فيه على حين غرة : يوسف . فانظر الى الكلمة التى عبر بها البيان القرآنى عن الطعام فى هذه الحال : « **فلمـه** سمعت بهكرهن أرسلت اليهن ، واعتدت لون متكأ » (١) « متكأ » كلمة تصور لك ذلك النوع من الطعام الذى انما يقدم الى المجلس تفكها وتبسطا ، وتجميلا للمجلس ، وتوفيرا لاسباب المتعة فيه ، ولذلك فالشأن فيه أن يكون الاقبال عليه فى حالة من الراحة والالتكاء . فأى تعبير هذا الذى تمتد به الدقة فى تصوير المعنى الى هذا الحد غير تعبير القرآن الكريم (٢) .

وانظر قوله تعالى : « **وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة** » (٣) تجد الآية ترسم لوحتين احدهما للسعداء ، والأخرى للاشقياء وتجد كلمة « ناضرة » قد استقلت فى لوحة السعداء بتصوير أزهى لون وأبهاره ، كما استقلت كلمة « باسرة » فى لوحة الاشقياء برسم أمقت لون وأنكاه (٤) .

وانظر الى القرآن حينما صور لنا كيف أنه عز وجل قد أهلك عادا بريح عاتية داهمتهم فأخذت تثقلهم من الارض اقتلاعا ، وتطيرهم فى الفضاء ، شبه جسمهم الطوال وهى تتطاير من الارض فى سهولة سريعة بنخيل طوال ، قد نخرت ، واقتلعت جذورها من باطن الارض ، فهى قائمة على ظاهرها لا يمسكها أى شىء . فانظر كيف عبر عن ذلك بقوله : « **انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر** » (١) وتأمل فى كلمة « منقعر » كلمة واحدة لأنها التعبير القرآنى لتصوير رائع ، وجعلها تدل فى اشراق جميل على ما لايمكنك التعبير عنه بكلمة واحدة مهما حاولت ، فهى تدل على أن النخيل قد انقطعت أصولها من باطن الارض ولم تعد الا عمدانة قائمة على سطحها ، ان هذه الكلمة الرائعة المصورة العجيبة يهتز لها رأس البليغ طربا .

(١) يوسف : ٣١

(٢) من روائع القرآن ص ١٤٤

(٣) القيامة : ٢٢ - ٢٥

(٤) مباحث فى علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح ص ٣٣٥

(١) القمر : ١٩ - ٢٠

واقراً قوله تعالى : « فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث ، وان تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فلتقص القصص لعلمهم يتفكرون » (٢) •

لقد ضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته فقال ان غطته فهو ضال ، وان لم تغطه فهو ضال ، كالكلب ان طردته وزجرته فسعى الهث ، أو تركته على حاله أيضاً الهث (٣) •

ثم تأمل هذه اللفظة العجيبة « الكلب » لقد استقلت برسم لوحة فنية رائعة أظهرت على صفحتها ضلال المكذب بآيات الله في جميع أحواله اذ كل شيء يلهث ، فانما يلهث من اعياء أو عطش أو علة خلا الكلب فانه يلهث في جميع أحواله ، في حال الدلال ، وفي حال الراحة ، وفي حال الصحة والمرض وحال البرى والعطش • فنانظر رعاك الله الى هذه الكلمة التي اختارها القرآن انها تدل في اشراق وروعة على ما لا يمكنك التعبير عنه بكلمة واحدة مهما حاولت ، وتأمل هذه الكلمة وانعم النظر فيها هل يصلح مكانها غيرها ؟

وتأمل قوله تعالى : « ومنهم من يستمعون اليك أفانت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر اليك أفانت تهدي العمى وأو كانوا لا يبصرون » (٤) •

كيف حل على فضل السمع على البصر حين جعل مع الصمم فقدان العقل ، ولم يجعل مع العمى الافقدان النظر (٥) •

وتأمل قوله تعالى : « تطالع إلى الأفئدة » (١) أى توفى عليها وتشرف • يقال : طالع الجبل واطلع عليه • اذا علا فوقه • ثم انعم النظر في هذه الكلمة العجيبة « الأفئدة » انها تصور لك هؤلاء القوم بصورة الاموات الاحياء ، لان الالم اذا صار الى الفؤاد مات صاحبه فأخبرنا القرآن بهذه اللفظة أنهم في حال من يموت وهم لا يموتون • فهل هناك في اللغة العربية - على اتساع - مفرداتها لقطة تصور لك الشيء ميتاً حياً الا هذه اللفظة ؟

واقراً قوله تعالى : « أخرج منها ماءها ومرعاها » (٢) وتأمل هاتين اللفظتين

(٢) الاعراف : ١٧٦

(٣) تاويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٧٢٦ تحقيق السيد أحمد صقر

(٤) يونس : ٤٣

(٥) تاويل مشكل القرآن ص ٧

(١) الهمزة : ٧

(٢) النازعات : ٣٢

« ماءها ، ومراعها » كيف دل الله بهما على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ، ومتاعا للأنام من العشب والشجر ، والحب والثمر والحطب والعصف واللباس والنار والملح لان النار من العيدان والملح من الماء(٣) .

واقراً قوله تعالى فى وصف خمر الجنة «(لا يصدعون عنها ولا ينزفون)»(٤) وتأمل كيف نفى الله عنها بهذين اللفظين جميع عيوب الخمر ، وجمع بقوله : « ولا ينزفون » عدم العقل ، وذهاب المال ، ونفاذ الشراب(٥) .

هذه بعض الأمثلة القارنية التى تثبت ما امتازت به مفردات القرآن الكريم من الجمال الصوتى ، والتناسق الفنى ، والايقاع الموسيقى ، والانتلاف المحكم ، والايحاء العجيب ، والتصوير البديع ، مما يدل على أن نظم هذه الالفاظ ليس من وضع البشر ، وانما هو شىء فوق مقدورهم .

واسمع ما يقوله حجة الادب العربى الفقيده « مصطفى صادق الرافعى » رحمه الله عن ألفاظ القرآن الكريم :

« لو تدبرت ألفاظ القرآن فى نظمها لرأيت حركاتها الصوتية واللغوية تجرى فى الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هى له من أمر الفصاحة ، ولن تجدها الا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها فى النظم الموسيقى ، حتى ان الحركة ربما كانت ثقيلة فلا تعذب ولا تساغ فاذا هى استعملت فى القرآن رأيت لها شأنا عجيبا . . من ذلك لفظة « النذر » جمع نذير ، فان الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا ، فضلا عن جساءة هذا الحرف ، ونبوه فى اللسان ، ولكنه جاء فى القرآن على العكس فى قوله تعالى : « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر » فتأمل هذا التركيب ، وأنعم ثم أنعم على تأمله ، وتذوق مواقع الحروف ، وأجر حركاتها فى حس السمع ، وتأمل مواضع التقليلة فى دال « لقد » وفى الطاء من « بطشتنا » وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء الى واو « تماروا » مع الفصل بالمد ، كأنها تثقيل لخفة التتابع فى الفتحات اذا هى جرت على اللسان ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد ، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الاحماض فى الاطعمة ثم ردد نظرك فى الراء من « تماروا » فانها ما جاءت الا مساندة لراء « النذر » حتى اذا انتهى اللسان الى هذه انتهى اليها من مثلها ، فلا تجف عليه ولا تغلظ ، ولا تنبو فيه ، ثم اعجب لهذه الغنة التى سبقت الطاء فى نون « أنذرهم »

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٥

(٤) الواقعة : ١٩

(٥) تأويل مشكل القرآن ص ٧

وفى ميمها ، وللغنة الاخرى التى سبقت الذال فى « النذر » وما حرف أو حركة
فى الآية الا وأنت مصيب من كل ذلك عجا فى موقعه والقصد به « (١) » .

ويقول فى موضع آخر : « وفى القرآن لفظة غريبة هى من أغرب ما فيه ،
وما حسنت فى كلام قط الا فى موقعها منه وهى كلمة « ضيزى » (٢) من قوله
تعالى : « تِلْكَ اٰذُنُ قَسَمَةٍ (٣) ضِيزَى » ومع ذلك فان حسننها فى نظم الكلام من
أغرب الحسن وأعجبه ، ولو أردت اللغة العربية عليها ما صلح لهذا الموضع
غيرها فان السورة التى هى منها وهى سورة « النجم » مفصلة كلها على الياء ،
فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ، ثم هى فى معرض الانكار على العرب ،
اذ وردت فى ذكر الاصنام ، وزعمهم فى قسمة الاولاد ، فانهم جعلوا الملائكة
والاصنام بنات الله ، مع وأدهم البنات (٤) فقال تعالى : « اَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ
الْاُنثٰى (٥) ؟ تِلْكَ اٰذُنُ قَسَمَةٍ ضِيزَى » فكانت غرابة اللفظة أشد الاشياء ملاءمة
للعناية هذه القسمة التى أنكرها ، وكانت الجملة كلها كأنها تصور فى هيئة
النطق بها الانكار فى الاولى والتهكم فى الاخرى ، وكان هذا التصوير أبلغ
مما فى البلاغة ، وخاصة فى اللفظة الغريبة التى تمكنت فى موضعها من
الفصل « (٦) » .

ثم يسترسل فى الحديث عن ألفاظ القرآن الكريم فيقول : « ومما لا يسع
طوق انسان فى نظم الكلام البليغ ، ثم مما يدل على أن نظم القرآن مادة فوق
الصنعة ، ومن وراء الفكر ، وكأنها صبت على الجملة صبا ، انك ترى بعض
الالفاظ لم يأت فيه الا مجموعا ، ولم يستعمل منه صيغة المفرد ، فاذا احتاج
الى هذه الصيغة استعمل مرادفها كلفظة « اللب » فانها لم ترد الا مجموعة
كقوله تعالى : « ان فى ذلك لذكرى لاولى الالباب » وقوله « وليذكر اولو الالباب »
ونحوهما ، ولم ترد فيه مفردة بل جاء مكانها « القلب » فى قوله تعالى :
« ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » وذلك لان
لفظ « الباء » شديد مجتمع ، ولا يفضى الى هذه الشدة الا من اللام الشديدة
المسترخية فلما لم تحسن اللفظة أسقطها من نظمه بته .

وكذلك لفظ « الكوب » استعملت فيه مجموعة ، ولم يأت بها مفردة ،

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص ٢٥٨

(٢) يقال : ضازه حقه وضامه : أى منعه ونقصه ، فهى قسمة جائرة ،

والضيز : الجور .

(٣) النجم : ٢٢

(٤) أى دفنهن على الحياة ، كما كان من عادتهم .

(٥) النجم : ٢١

(٦) اعجاز القرآن للرافعى ص ٢٦١

لانه لا يتهيأ فيها ما يجعلها فى النطق - من الظهور والرقعة والانكشاف وحسن التناسب - كلفظ « أكواب » الذى هو الجمع و « الأرجاء » لم يستعمل القرآن لفظها الا مجموعا ، وترك المفرد وهو « الرجا » أى الجانب لعله لفظه . وأنه لا يسوغ فى نظمه كما ترى .

وعكس ذلك لفظة « الأرض » فانها لم ترد فيه الا مفردة ، ولم يرد فى القرآن صيغة الجمع « أرضين » ولما احتاج الى جمعها أخرجها على هذه الصورة التى ذهبت بسر الفصاحة ، وذهب بها حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة وذلك فى قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن » ولم يقل « وسبع أرضين » لهذه الجسأة التى تدخل للفظ ، ويختل بها النظم اختلالا (١) .

ويمضى فى الحديث عن ألفاظ القرآن فيقول : « وتأمل قوله تعالى : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات » فانها خمسة أسماء ، أخفها فى اللفظ « الطوفان ، والجراد ، والجم ، وأثقلها (القمل ، والضفادع ، فقدم « الطوفان » لكان الحين فيها ، حتى يأنس اللسان بخفتها ، ثم الجراد وفيها كذلك مد ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئا بأخفهما فى اللسان وأبعدهما فى الصوت لكان تلك الغنة فيه ، ثم جىء بلفظة « الدم » آخرا ، وهى أخف الخمسة وأثقلها حروف ليسرع اللسان فيهما ، ويستقيم لها ذوق النظم ، ويتم بها هذا الاعجاز فى التركيب ، وأنت فهمها قلبت هذه الاسماء الخمسة ، فانك لا ترى لها فصاحة الا فى هذا الموضع ، فلو قدمت أو أخرت لبادرك التهافت والتعثر ، ولاغنتك أن تجىء منها بلفظ ، أو نظم فصيح .

ثم لا ريب أحالك ذلك عن قصد الفصاحة ، وقطعك دون غايتها ، ثم لخرجت الأسماء فى اضطراب النطق على ذلك بالسواء ، ليس يظهر أخفها من أثقلها ، فانظر كيف يكون الاعجاز فيها ليس فيه اعجاز بطبيعته (١) .

واسمع ما يقوله المرحوم الشيخ الزرقانى فى موضوع خصائص أسلوب القرآن الكريم : « للقرآن مسحة خلافة عجيبة تتجلى فى نظامه الصوتى ، وجماله اللغوى ، ونريد بنظام القرآن الصوتى : اتساق القرآن واقتلافه فى حركاته وسكناته ، ومداته وغناته ، واتصالاته وسكناته ، اتساقا عجيبا ،

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص ٢٦٤ - ٢٦٥

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص ٢٦٧

وإتلافا رائعا ، يسترعى الاسماع ، ويستتهوى النفوس ، بطريقة لا يمكن أن يصل اليها أى كلام آخر من منظوم ومنثور .

ونريد بجمال القرآن اللغوى ، تلك الظاهرة العجيبة التى امتاز بها القرآن فى وصف حروفه وترتيب كلماته ، ترتيبا دونه كل ترتيب تعاطاه الناس فى كلامهم ، ولقد وصل هذا الجمال اللغوى الى قمة الاعجاز ، بحيث لو دخل فى القرآن شىء من كلام الناس ، لاعتل مذاقه فى أفواه قارئيه ، واختل نظامه فى آذان سامعيه . ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوى ، وذلك النظام الصوتى ، أنهما كما كانا دليل اعجاز من ناحية ، كانا سورا منيعا لفظ القرآن من ناحية أخرى ، وذلك أن من شأن الجمال اللغوى والنظام الصوتى أن يسترعى الاسماع ، ويثير الانتباه ، ويحرك داعية الاقبال فى كل انسان الى هذا القرآن الكريم ، وبذلك يبقى أبد الدهر سائدا على السنة الخلق وفى آذانهم ويعرف جذاته ومزاياه بينهم فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله ، مصداقا لقوله سبحانه : ﴿ انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ﴾ (٢) .

المظهر الثالث

الجملة القرآنية وصياغتها

ان دراسة الجملة القرآنية تتصل اتصالا مباشرا بدراسة المفردة القرآنية لان هذه أساس الجملة ، ومنها تركيبها • واذا كان علماء البلاغة يجعلون البلاغة درجات ، فانهم مقرون - دون جدال - أن صياغة العبارة القرآنية في الطرف الأعلى من البلاغة الذي هو الاعجاز ذاته • وللاعجاز فيها وجوه كثيرة •

فمنها : ما تجده من التلازم والاتساق الكاملين بين كلماتها ، وبين تلاحق حركاتها ، وسكناتها ، فالجملة في القرآن تجدها دائما مؤلفة من كلمات وحروف ، وأصوات يستريح لثافتها السمع والصوت والنطق ، ويتكون من تضامها نسقا جميلا ينطوى على إيقاع رائع ، ما كان ليتم لو نقصت من الجملة كلمة أو حرفا أو اختلف ترتيب ما بينها بشكل من الاشكال •

اقرأ قوله تعالى : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر » (١) وتأمل تناسق الكلمات في كل جملة منها ، ثم دقق نظرك ، وتأمل تالف الحروف الرخوة مع الشديدة مع المهوسة والمجهورة وغيرها ، ثم حاول أن تمنع في تالف وتعاطف الحركات والسكنات والمحدود اللاحقة ببعضها • فانك اذا تأملت في ذلك ، علمت أن هذه الجملة القرآنية • انما صبت من الكلمات والحروف والحركات في مقدار ، وأن ذلك انما قدر تقديرا بعلم اللطيف الخبير • وهيهات للمقاييس البشرية أن تضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة (٢) •

ومنها : أنك تجد الجملة القرآنية تدل بأقصر عبارة على أوسع معنى تام متكامل لا يكاد الإنسان يستطيع التعبير عنه الا بأسطر وجمل كثيرة ، دون أن تجد فيه اختصارا مخلا ، أو ضعفا في الدلالة •

اقرأ قوله تعالى : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » (٣)

ثم تأمل كيف جمع الله بهذا الكلام كل خلق عظيم ، لان في أخذ العفو صلة القاطعين والصفح عن الظالمين ، وإعطاء المانعين • وفي « الامر بالمعروف »

(١) القمر : ١١ ، ١٢ ، ١٣

(٢) من روائع القرآن ص ١٣٧

(٣) الاعراف : ١٩٩

تقوى الله ، وصلة الرحم ، وصون اللسان عن الكذب ، وغض الطرف عن الحرمات • وفى « الاعراض عن الجاهلين » الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مماراة السفية ، ومنازعة اللجوج (١) •

واقراً قوله تعالى مخاطباً آدم عليه السلام : « ان لك ألا تجوع فيها ، ولا تهرى ، وأنك لا تظلم فيها ولا تضحي » (٢) ثم تأمل كيف جمع الله بهذا الكلام أصول معاش الانسان كلها من طعام وشراب وملبس ، ومأوى •

واقراً قوله تعالى : « وأوحينا الى أم هوسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك ، وجاءوه من المرسلين » (٣) وتأمل كيف جمعت هذه الآية الكريمة - على وجازتها - بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين • أما الأمران فهما :

« أرضعيه » و « ألقيه فى اليم » وأما النهيان فهما « لا تخافى » و « لا تحزنى » •

وأما الخبران فهما « أوحينا » و « خفت » وأما البشارتان فهما « انا رادوه اليك » و « جاءوه من المرسلين » •

انه الاعجاز يلبيس ثوب الايجاز فتخر لعظمته جباه أساطين البيان ، وتسجد لجماله أفكار دهاقين الكلام •

وتأمل سورة « الكوثر » وهى أقصر سورة فى القرآن اذ هى ثلاث آيات قصار كيف تضمنت - على قلة آياتها - الاخبار عن مغيبين : أحدهما - الاخبار عن الكوثر « نهر فى الجنة » وعظمته وسعته وكثرة أوانيه ، والثانى - الاخبار عن « الوليد بن المغيرة » وكان عند نزولها ذا مال وولد ، ثم أهلك الله سبحانه ماله وولده ، وانقطع نسله •

ومنها : اخراج المعنى المجرد فى مظهر الامر المحس الملموس ، ثم بث الروح والحركة فى هذا المظهر نفسه •

ومكمن الاعجاز فى ذلك ، أن الالفاظ ليست الا حروفاً جامدة ذات دلالة

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٥

(٢) طه : ١٨ - ١٩

(٣) القصص : ٧

لغوية على ما أنيط بها من المعانى ، فمن العسير جدا أن تصبح هذه الانفاظ وسيلة لصب المعانى الفكرية المجردة فى قوالب من الشخصوس والاجرام والمحسوسات ، تتحرك فى داخل الخيال كأنها قصة تمر أحداثها على مسرح يفيض بالحياة والحركة المشاهدة المموسة .

ومقياس هذا الذى نقول ، أنك اذا أقبلت تقرأ شيئا من كتاب الله عز وجل بامعان ، رأيت نفسك تستقبل معانى الآيات بكل من عقلك وخيالك معا ، فالعقل يفهم والخيال يتصور ، وذلك على خلاف المؤلف والمعروف لدى قراءة أى كلام أو كتاب آخر ، فالعقل وحده الذى يتفاعل مع الكلام والمعانى ، اللهم الا تلك المواضيع الاخرى التى تقوم فى جوهرها الاصلى على التخيل والتصوير ، ولكن القرآن ، فى مواضيعه كلها ، انما تقوم أدواته التعبيرية على التصوير والتجسيم .

وانظر بعقلك وخيالك الى القرآن الكريم حينما يصور حالة المتكبر وعنفوانه واستعلائه على الحق وجنوحه عن السبيل الصحيح فيقول : « انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ، فهى الى الاذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سدا ، ومن خلفهم سدا فاغشييناهم فهم لا يبصرون » (١) .

انه تعبير بلغ أسمى درجات الروعة ، انه يجعلك تتخيل انسانا الثقف حول عنقه غل عريض مرتفع الى الذقن جعل رأسه صاعدا الى الأعلى لا يتحرك ، ثم هو يقف فى مكان قد سد عليه بجدران غليظة مرتفعة من أمامه وخلفه ، وقد غش الظلام على بصره ، فهو لا يملك حراكا نحو أى اتجاه ، تلك هى صورة من لم ينفع معه المنطق ودلائل الفكر والعقل ، وظل مع ذلك عاكفا على غيه وضلاله .

واستمع الى القرآن الكريم وهو يصور لك قيام الكون على أساس من النظام الرتيب والتنسيق البديع الذى لا يتخلف ، ولا يلحقه الفساد . فيقول : « ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والامر » (١) .

انه يصور لك هذا المعنى فى مظهر من الحركة المحسوسة الدائرة بين عينيك ، وكأنك أمام آلات تتحرك بسرعة دائبة فى نظام مستمر يعيها ويتصورها الشعور والخيال .

وانظر الى القرآن الكريم حين يعتمد الى معنى فكرى مجرد فيخرجه لك
فى مظهر حرب متلاحمة بين طرفين تبصر أحداثها أمامك حية مجسمة • فيقول:
« بل نقذف بالحق على الباطل فيدفعه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما
تصفون » (٢) فالقذف والدفع والزهق كلمات ما كان ليخطر فى بال أى متأمل
أن يستعملها فى مجال التعبير عن ان الحق هو الذى تتقبله النفوس والعقول
الحرّة دائماً ، ولكن المعجزة القرآنية هى التى طوّعت مختلف ألفاظ اللغة لمختلف
المعاني والأفكار (٣) •

ثم انظر الى القرآن الكريم وهو يصور الهزيمة والجبن والرعب والقلق
النفسى الذى يسيطر على قلوب المنافقين فيقول : « لو يجدون ملجأ أو مغارات
أو مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون » (٤) •

تأمل كيف بسط معنى الهزيمة والجبن على هذه اللوحة التصويرية الرائعة،
وأخرج هذا المعنى الفكرى فى صورة جماعات من الناس تائهة زائغة العين لما
يسيطر عليها من الرعب ، فهى تنقذف هنا وهناك بحثاً عن المأمن والمهرب فى
حركات عجيبة غريبة • ثم تأمل الكلمات التى استقلت برسم هذه الصورة
الرائعة العجيبة • تأمل الكلمات « ملجأ ، مغارات ، مدخلا » انها تصور فى
ذهنك شكلاً معيناً للملاذ الذى يبحث عنه المنهزم والخائف • بدءاً من الشكل
الطبيعى المألوف وهو الملجأ العادى من دار أو غرفة أو جماعة من الناس ، الى
الشكل الذى لا يألوه ويرتضيه الا من اشتد خوفه وهو المغارة فى باطن الارض
أو بطن الجبل ، الى الشكل الذى هو أبعد فى القبول والألف من كليهما : وهو
المدخل ، أى المكان الضيق الذى لا يكاد يستطيع هذا الخائف أن يفتححه
الا بجهد ، ولا يكاد يستطيع أن يستقر فيه الا تضاضاً والتصاقاً ، ثم تأمل
كلمة « يجمحون » انها ترسم فى خيالك صورة مضحكة ساخرة لهؤلاء المنافقين
ان هذه الكلمات التى اختارها الخالق جل وعلا ، وصاغها هذه الصياغة العجيبة
قد أبرزت هذا المعنى الفكرى فى صورة متحركة ساخرة تجسدت فى الخيال
حتى لتكاد العين الباصرة تراها ، واليد اللامسة تتقراها •

ثم استمع الى القرآن الكريم وهو يصور لك كراهية أهل الجاهلية للانثى
اذ تولد فى دار أحدهم ، ويكشف لك عما يعتمل فى صدر من بشر بها من

(٢) الانبياء : ١٢

(٣) من روائع القرآن ص ١٥٢

(٤) التوبة : ٥٧

الكرب والغیظ والعصبية والصراع بین القسوة الشديدة المتولدة عن الغیظ
النعيف ، والرحمة الضعيفة الصادرة عن العاطفة الأبوية ، انه یصور ذلك كله
بأسلوب رائع تسجد له البلاغة فی أسمى مظاهرها وألوانها فیقول :
« واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظیم ، ینتواری من القوم
من سوء ما بشر به ، أیهمسكه على هون أم یدسه فی التراب ألا ساء
ما یحكمون » (١) .

تأمل بعقلك وخیالك هذا الأسلوب العجیب كيف أخرج هذه المعانی النفسية
الخفية فی صورة حسية متحركة ملموسة ؟ ثم أنعم النظر فی الكلمات التي
استقلت برسم هذه الصورة البديعة .

تأمل كلمة « بشر » فقد صورت بصوتها وظلها ، وجرسها تهكم من
حواله به . وتأمل قوله : « ظل وجهه مسودا وهو كظیم » فقد صور بنظمه
العجیب شدة الكرب الذي انتابه ، وتأمل قوله : « ینتواری من القوم من سوء
ما بشر به » فقد صور بدقة تركيبه واحكام صياغته وقع النبأ الذي حمله
اليه القوم مبشرين - أی متهمین ومشفقین - وتأمل قوله « أیهمسكه على
هون أم یدسه فی التراب » فقد صور بجمال نظمه وروعة بیانه الحيرة التي
تراوده وتطوف بخاطره . وتأمل المفردة القرآنية الرائعة « یدسه » كيف أنها
تشف لك عن الغیظ والعصبية والشدة التي تلبست بها حالة الرجل وأعضاؤه ،
وكيف تصور لك مقاومة الدفع المغتاز للرحمة فی مظهرها الضعیف المتألم
المسالم ؟

الفصل الرابع

الاعجاز والبلاغة

لقد نشب صراع حاد وعنيف بين علماء البلاغة حول الصور والالوان البلاغية في القرآن الكريم . هل هي معجزة أو غير معجزة ؟

ففرق منهم يرى أنها معجزة ، ويجعلها من وجوه الاعجاز في القرآن الكريم . وفريق آخر يرى أنها غير معجزة ، وينفى أن تكون من وجوه الاعجاز في القرآن الكريم . ومن هذا الفريق « أبو بكر الباقلائي » (١) .

والمسألة تحتاج الى بحث وتحقيق ، وفي هذا الفصل من البحث سأقوم بتحقيقها ، واطهار وجه الصواب فيها فأقول طالبا العون والتوفيق من الله وحده :

ان هذه الصور والالوان معجزة في القرآن ، واعجازها راجع الى نظمها ، فالقرآن الكريم - كما سبق أن وضحنا - معجز بنظمه ، وهذه الصور والالوان قد اقتضاها هذا النظم المعجز فأصبحت جزءا منه فتكون معجزة ولقد أشار الى ذلك الشيخ عبد القاهر الجرجاني عندما تعرض لتوضيح الاستعارة في قوله تعالى : « **واشتعل الرأس شيبا** » (٢) . فقال : « ان في الاستعارة ما لا يمكن بيانه الا من بعد العلم بالنظم ، والوقوف على حقيقتها .

ومن دقيق ذلك وخفيه أنك ترى الناس اذا ذكروا قوله تعالى : « **واشتعل الرأس شيبا** » لم يزيّدوا فيه على ذكر الاستعارة ، ولم ينسبوا الشرف الا اليها ، ولم يروا للمزية موجبا سواها . هكذا ترى الامر في ظاهر كلامهم ، وليس الامر على ذلك ، ولا هذا الشرف العظيم ، ولا هذه المزية الجليلة ، وهذه الروعة التي تدخل على القفوس عند هذا الكلام مجرد الاستعارة ، ولكن لان يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه الى الشيء ، وهو لما هو من سببه ، فيرفع به ما يسند اليه ، ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوبا بعده ، مبينا أن ذلك الاسناد ، وتلك النسبة الى ذلك الاول انما كان من أجل هذا الثاني ، ولما بينه وبينه من هذا الاتصال والملابسة كقولهم : طاب زيد نفسه . وقر عمرو عينا ، وتصيب عرقا ، وكرم أصلا ، وحسن وجها ، وأشباه ذلك .

(١) أنظر اعجاز القرآن للباقلاني ص ١٦٩

(٢) مزيم : ٤

مما تجد الفعل فيه منقولاً عن الشيء الى ما ذلك الشيء من سببه ، وذلك أنا نعلم أن « اشتعل » للشيب في المعنى ، وإن كان هو للرأس فقط ، كما أن « طاب » للنفس ، و « قز » للعين ، و « تصبب » للعرق ، وإن أسند الى ما أسند اليه ، يبين أن المشرف كان لأن سلك فيه هذا المسلك وتوخى به هذا المذهب ، أن تدع هذا الطريق فيه ، وتأخذ اللفظ فتسند الى الشيب صريحا فنقول : « اشتعل شيب الرأس » أو « الشيب في الرأس » ، ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن ، وتلك الفخامة ؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها ؟ فإن قلت : فما السبب في أن كان « اشتعل » اذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له لفضل ، ولم بان بالميزية من الوجه الآخر هذه الميئونة ؟ فان السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس ، الذي هو أصل المعنى ، الشمول ، وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من نواحيه ، وأنه قد استقر به ، وعم جملة ، حتى لم يبق من السواد شيء ، أو لم يبق منه الا ما لا يعتقد به . وهذا ما لا يكون اذا قيل : « اشتعل شيب الرأس » أو « الشيب في الرأس بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة ، ووزان ذلك أن تقول : « اشتعل البيت نارا » فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول ، وأنها استولت عليه ، وأخذت في طرفيه ووسطه ، وتقول : « اشتعلت النار في البيت » فلا يفيد ذلك ، بل لا يقتضى أكثر من وقوعها فيه ، واصابتها جانبا منه ، فأما الشمول ، وأن تكون قد استولت على البيت ، وابترته فلا يعقل من اللفظ ألبتة . ونظير هذا في التنزيل قوله عز وجل : « وفجرنا الارض عيونا (١) » التفجير للعيون في المعنى ، وواقع على الارض في اللفظ ، كما أسند هناك الاشتعال الى الرأس . وقد حصل بذلك من معنى الشمول ها هنا مثل الذي حصل هناك .

وذلك أنه قد أفاد أن الارض قد كانت صارت عيونا كلها ، وأن الماء كان يفور من كل مكان فيها ولو أجرى اللفظ على ظاهره فقليل : « وفجرنا عيون الارض » ، « أو العيون في الارض » لم يفد ذلك ، ولم يدل عليه ، ولكان المفهوم منه أن الماء قد كان فار من عيون متفرقة في الارض ، وتبجس من أماكن فيها (٢) .

من هذا النص يتضح لنا أن عبد القاهر يرجع جمال الاستعارة وشرفها وروعها في القرآن الكريم الى نظمها العجيب البديع ، وكم كنت أود أن يتناول هذا الاديب الذواقة الصور والالوان البلاغية في القرآن بهذه العبارة الفياضة وبذلك الطريقة البيانية الرائعة التي تدهش عن الجمال الأخاذ والاعجاء الرائع

(١) القمر : ١٢

(٢) دلائل الاعجاز ص ٧٩ - ٨٠ وانظر تلخيص البيان للشريف الرضى

الذى يكمن فى هذه الصور ، وينبع من نظمها العجيب الذى لا يقدر على مثله بنى . ولكنه وقف عند لحة من لمحاته الجزئية شأنه فى ذلك شأن غيره من بلغاء عصره .

وأنا أضيف الى ما قاله الشيخ عبد القاهر أن جمع الصور والالوان البلاغية بنطبق عليها ما انطبق على الاستعارة فهى معجزة ، واعجازها يكمن فى نظمها ، وهذا هو محط الفرق بينها فى القرآن وبينها فى كلام العرب فهى معجزة فى القرآن لان نظمها معجز ، وغير معجزة فى كلام العرب لان نظمها غير معجز .

وقد خفيت هذه الحقيقة على بعض علماء البلاغة كالباقلانى فنفى أن تكون هذه الالوان والصور معجزة فى القرآن الكريم لانها توجد فى الشعر ، وغاب عنه الفرق بين هذه الصور والالوان فى القرآن وبينها فى كلام العرب واليك ايها القارئ الكريم بعض الامثلة القرآنية التى توضح هذه الحقيقة وتجليها .

من روائع التشبيه فى القرآن الكريم :

قال تعالى : « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام ، حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاهم أمرنا أبلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كان لهم ثمن بالامس (١) » .

شبه القرآن حال الدنيا فى سرعة تقضيها ، وانقراض نعيمها ، واغترار الناس بها ، بحال ماء نزل من السماء وأنبت أنواع العشب ، وزين بزخرفها وجه الارض كالعروس اذا أخذت الثياب الفاخرة ، حتى اذا طمع أهلها فيها ، وظنوا أنها مسلمة من الجوائح أتاهم بأس الله فجاءة فكأنها لم تكن بالامس [

تأمل بعقلك وخيالك وذوقك نظم الآية الكريمة انها مكونة من عشر جمل لو سقط منها شيء اختل التشبيه ، وانظر الى هذه الجمل تجد كل جملة تعبر عن مشهد من مشاهد الحياة الدنيا ، وقد رتبت ترتيبا عجيبا كأن كل جملة منها قلد التى تليها ، وقد تكونت كل جملة من طائفة من الكلمات تالفت بأصواتها وظلالها وأجراسها فعبرت أصدق تعبير عن المشهد الذى استقلت به ، ان نظمها مفصل على معناها بمقدار ، بحيث اذا أخرجت أو قدمت أو غيرت كلمة بأخرى أو حرفا باخر اختل المعنى ، وتبعثرت مشاهد الصورة الدنيوية .

قال تعالى : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا (٢) » . شبه القرآن أعمال

(١) يونس : ٢٤

(٢) ابراهيم : ١٨

الذين كفروا فى ضياعها ، وذهابها الى غير عودة بهيئة رماد تذروه الرياح وتذهب
به يددا ، الى حيث لا يتجمع أبدا •

تأمل نظم الآية تجد كل كلمة قارة فى مكانها ، مطمئنة فى موضعها لاتشكو
قلقا ولا اضطرابا ، معبرة فى دقة وصدق عن معناها ، وتأمل تناسق الكلمات
وترتيب الجمل وتعانقها ، ومخارج الحروف وأصواتها ، وإيحاءات
الالفاظ واشاراتها تجد نظما عجيبا لا يقدر عليه الا خالق الارض والسموات •

تأمل كلمة « رماد » انها توحى بخفة الوزن ، وتأمل ، « اشتدت » فانها
توحى بسرعة الرياح وتأمل كلمة « عاصف » فانها توحى بالعنف •

وتأمل كيف أبرز لك هذا التشبيه ببديع نظمه الصورة حية متحركة كأنك
تراها وتلمسها •

قال تعالى : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتشبيها دن
أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل ، فآتت أكلها ضعفين ، فان لم يصبها
وابل فطل (١) » •

شبه القرآن الصدقات التى تنفق ابتغاء مرضاة الله فى كثرة ثوابها
ومضاعفة أجرها بجنة فوق ربوة أصابها مطر غزير فأخصبت ترتبها ،
وتضاعف أكلها •

تشبيه رائع وجميل يهز العواطف ، ويحرك الاحاسيس والمشاعر ، وتسجد
له البلاغة فى أسمى معانيها وألوانها •

تأمل نظم الآية العجيب كلمات الهية لا يصلح فى مكانها غيرها تعبر عن
معانيها فى دقة واحكام ، وتنبعث منها لطائف وأنوار ، وينطوى تحتها الكثير
من العجائب والاسرار ، وجمل ربانية متناسقة متلاحقة قد فصلت على معانيها
جمقدار ، وحروف ذات أصوات وأنغام تبعث فى الصورة الحركة وتبث فيها
الحياة •

انما من يقرأ الآية الكريمة ، ويتذوق حلاوتها يخيل اليه أنه يرى هذه
الصورة الغيبة الخفية ماثلة أمام عينيه وأنه يلمسها ويتقراها ببديهة
أبعد هذا التصوير يأتى مكابر جهول يصف التشبيه القرآنى بأنه عن الاعجاز
معذول ؟

قال تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، كمثل العنكبوت
« اتخذت بيتا ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون (٢) » » .

شبه القرآن الكريم حال هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أندادا في لجوئهم
 واجتماعهم بهؤلاء الأنداد الضعفاء المتناهين في الضعف بحال العنكبوت حينما
 قاوى الى بيتها الضعيف الواهن وتحتذى به .

صورة عجيبة تلج على الحس والوجدان ، وتجذب اليها الالتفات ،
 وتسترقى الانتباه ، وتسترقق الاسماع وتبهر الالباب وتستولى على الاحاسيس
 والمشاعر ، ويقف أمامها دهاقين الكلام حيارى يتساءلون كيف نظمت هذه
 الصورة ؟ وكيف تكونت ؟ ثم لا يجدون من يجيبهم على تساؤلاتهم ، لان
 البشر مهما أوتوا من البراعة والبيان لا يمكنهم الوصول الى معرفة سر نظم
 القرآن .

انها تصور لك هؤلاء العباد الغافلين بصورة العناكيب الضئيلة الواهنة ،
 وتصور لك هؤلاء الأنداد الضعفاء عاجزين بصورة بيت العنكبوت الذى يضرب
 به المثل فى الضعف والوهن .

وأظنك أيها القارىء الكريم لست فى حاجة الى أن أحدثك عن نظم هذه
 الصورة البلاغية فذلك متروك لذوقك واحساسك ، ولكننى أدعوك الى النظر
 والتأمل فى الكلمات التى اختيرت للمشبه به ونظمت منها صورتها « كمثل
 العنكبوت اتخذت بيتا . . » هل فى مقدورك أو فى مقدور أى بليغ مهما كان
 حظه من الفصاحة والبيان ، ومهما كان يحفظ من مفردات اللغة العربية أن
 يأتى بالفاظ تسد مسد هذه الالفاظ التى نظمت منها صورة المشبه به ؟
 ان أحدا من البشر لن يستطيع ، واللغة العربية على اتساع نفرداتها ليس فيها
 ما يسد مسد هذه الالفاظ .

انها الصياغة الالهية يقف البشر أمامها دائما عاجزين حيارى مذهولين .

قال تعالى : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسأخ منها ، فاتبعه
 الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد الى الارض ،
 واتبع هواه فمثل كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث (١) » » .

تأمل الصورة التشبيهية التى اشتملت عليها الآية الكريمة .

لقد شبه القرن الكريم فى هذه الآية حال المكذب بايات الله فى اصراره على ضلاله فى جميع أحواله بحال الكلب فى ادامة لهثانه •

انها صورة فنية رائعة أحكم القرآن الكريم صياغتها ، وأجادت الريشة الالهية رسمها ، تكشف فى جلاء ووضوح عن حقيقة هذا المكذب الضال ، انه حقير قذر ، لا يؤثر فيه النصع والارشاد ولا ينفذ معه الوعظ والتذكير ، قد ركب رأسه ، ولج فى ضلاله ، واتخذ الشيطان الها من دون الله ثم تأمل الكلمات التى نظمت منها صورة المشبه به لا تجد فى مفردات اللغة - على كثرتها ، من يقوم مقامها ويسد مسدها ، ثم تأمل كلمة « الكلب » وحدها لا تجد كلمة فى اللغة تصور هذا المعنى وتبرزه فى صورة حية متحركة سواها ، اذ كل مخلوق انما يلث من مرض أو عطش أو اعياء الا الكلب فانه يلث فى جميع أحواله فى حال الدلال ، وفى حالة الراحة ، وفى حالة الصحة والمرض وفى حالة الرى والعطش •

قال تعالى : « وحرور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون (١) » •

شبه القرآن الكريم الحور العين باللؤلؤ المكنون فى الصفاء والنقاء والهدوء والصيانة •

تأمل نظم هذه الصورة التشبيهية الالهية انه فوق طاقة البشر • ثم تأمل هذه الكلمة العجيبة « اللؤلؤ » هل فى مقدورك أو فى مقدور أى بليغ مهما أوتى من البراعة والبيان أن يأتى بكلمة أخرى تؤدى معناها ، وتصور ما صورته ؟ ثم تأمل الدقة فى وصف هذا اللؤلؤ بكونه مكنونا •

ان اللؤلؤ فيه الصفاء والهدوء والنقاء ، وهو أحجار كريمة من شأنها أن تصان ويحرص عليها •

تأمل الارتباط العجيب والصلة الوثيقة بين الحور العين واللؤلؤ المكنون : انه الاعجاز يلبس ثوب التشبيه فيقف البلاء أمامه ضعفاء قد استولت عليهم الحيرة وسيطرت على عقولهم الدهشة وداعبت أنامل الاعجاب حبات قلوبهم فخرؤا ساجدين لعظمته ، وشهدوا بأنه البيان الالهى الذى لا يقدر عليه بشر •

قال تعالى : « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال (١) » :

شبه القرآن الكريم الموج الذى تمخر عبابه سفينة نوح عليه السلام بالجبال
فى الضخامة ، والارتفاع تشبيهه رائع جميل يصور للعين هذه الامواج المتلاطمة ،
كما يصور للنفس ما يحس به ركاب هذه السفينة • ثم تأمل هذه الكلمة الالهية
« الجبال » هل فى مفردات اللغة - على كثرتها « من يقدم مقامها فى هذا
الموضع ، ويؤدى معناها ، ويوحى بما توحى به ، ويصور ما تصوره ؟

واذا كان من الشعراء والكتاب من شبه بالجبال ، فانما هو متأثر بالقرآن
ولكن شتان ما بين نظم القرآن ونظم الانام • انه يشبه بالجبال ويحسب
أن البيان كلمات متراسة بلا نظام ، ولكن ما هكذا يا سعد تورد الابل • ان
النظم القرآنى سر عجيب لا يعرفه الا من يعلم الخبء فى السموات والارض
وكنز ثمين لا يملك مفتاحه الا علام الغيوب •

قال تعالى : « والقمر قد رنائه منازل حتى عاد كالعرجون القديم (١) » •

شبه القرآن الكريم الهلال فى آخر الشهر حين يصير دقيقا نحيلاً محدودباً
بالعرجون القديم •

تشبيهه الهى عجيب يصور للعين القمر كما تراه ، ويصوره للنفس كما
تحس به •

تأمل كلمة « العرجون » كيف رسمت بظلالها وايحائها هذه الصورة الصادقة
الجميلة ؟ وكيف استوعبت أجزاءها فى دقة واحكام ؟ انها تريك هذا الهلال
وكأنه فى السماء كوكب تائه لا أهمية بأمره وتحمل الى نفسك ضالته ونحولة
معا ثم تأمل الدقة فى وصف هذا العرجون بكونه قديماً • ان هذه الصورة
لا تتم الا بهذا الوصف • ثم فتش فى مفردات اللغة هل تجد فيها كلمة ترسم
هذا المنظر سوى هذه الكلمة ؟

ولكى يستبين لك الاعجاز فى النظم القرآنى انظر الى صورة هذا الهلال
فى كلام البشر • انظر الى ابن المعتز حين وصف هذا الهلال وقد خيل اليه انه
أحسن وأجاد ، وأتى بما لم يأت به غيره قال :

انظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

انه رسم لهذا الهلال الجميل صورة شوهاء متخيلة ، فأين الزورق الضخم
من هذا الهلال النحيل ؟

تأمل الصياغة القرآنية فى جمالها وصدقها واعجازها • وتأمل الصياغة البشرية فى ردايتها وتفككها وسماجتها • تأمل الصياغة القرآنية فى قوة تأثيرها ، وقدرتها على التصوير •

وتأمل الصياغة البشرية فى هزالها وضعفها •

قال تعالى : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش (٢) » •

شبه القرآن الكريم الناس يوم القيامة بالفراش المبثوث فى ضعفهم وضالتهم وتهافتهم •

وشبه الجبال بالعهن « الصوف » المنفوش فى هشاشتها وخفتها •

مشهدان رائعان رسمتهما الريشة الالهية فأجادت وأعجزت ، وسحرت وأدهشت •

تأمل هذه الكلمة « الفراش » انها تصور لك بظلمها وجرسها ، وايحائها الناس فى هذا اليوم فى منتهى الضعف والضالة ، وهم مستطارون مستخفون من هول هذا اليم •

وتأمل الدقة فى وصف الفراش بكونه مبثوثا ان هذا الوصف يصور لك كثرة الناس فى هذا اليوم وتهافتهم • ثم حدثنى بربك هل فى مفردات اللغة كلمة تصور هذا المشهد سوى هذه الكلمة القرآنية ؟

وهل هناك أعجب من هذه الدقة فى وصف الفراش بكونه مبثوثا ؟

ثم دقق نظرك فى كلمة « العهن » هل فى قواميس اللغة العربية كلمة أقدر على تصوير هذا المشهد من هذه الكلمة ؟ انها بجمالها وظلمها وجرسها الساحر تصور لك الجبال الضخمة الثابتة بالصوف المنفوش الذى تتقاذفه الرياح الهوج • ثم تأمل بعقلك وخيالك الدقة والاحكام فى وصف العهن بكونه منفوشا ان هذا الوصف يصور لك الجبال الضخمة الثابتة فى منتهى الهشاشة والخفة •

انه النظم القرآنى يبهر العقول ، ويطير بالالباب ، ويذهب بسر البلاغة
بوسحر البيان .

قال تعالى : « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كانهم بنيان
مرصوص (١) » .

شبه القرآن الكريم ما يجب أن يكون عليه المجاهدون فى سبيل الله من
الالتحام والترابط الوثيق والاجتماع القوى بالبنیان المرصوص .

تشبيهه عجيب انه يصور لك المجاهدين يشد بعضهم أزر بعض بالبنیان
المرصوص فى قوة تماسكه وشدة ترابطه والتحامه . أرايت أعجب من هذا
التصوير ؟

حدثنى بربك لو استبدلت كلمة « البنیان المرصوص » بكلمة « حائط ،
أو جدار » هل تثير فى نفسك ما تثيره هذه الكلمة القرآنية من معنى الالتحام
وقوة الاتصال ؟

أنها بلا شك أقدر على التصوير من أى كلمة أخرى ، ثم تأمل الحقبة
القرآنية فى وصف البنیان بكونه مرصوصا . ان المعنى لا يتم بدونها (٢) .
وقوة التأثير لا تتحقق الا بها .

انه النظم القرآنى فى تماسكه الفنى ، وترابطه القوى ، يسترق الاسماع ،
ويثير فى النفس أسمى آيات الاعجاب .

قال تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد
أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنها يصعد فى السماء (١) » .

شبه القرآن الكريم الضيق الذى يشعر به المنافقون عندما يسمعون دعوة
الحق بالضيق الذى يحس به من يصعد جبلا عاليا .

انه تشبيه فوق طاقة أساطين البيان وصناع الكلام . انه يصور لك
هؤلاء المنافقين عندما تفرع أسماعهم دعوة الحق فيضيقون بها بمن يصعد
جبلا عاليا ضخما شامخا فهو يجر نفسه ، ويلته من التعب والعناء .

(١) الصف : ٤

(٢) أى كلمة « مرصوص » .

(١) الانعام : ١٢٥ .

تأمل بعقلك وخيالك وذوقك قوله « يصعد في السماء » انه يصور لك
فى دقة واحكام مدى ما يشعر به هذا الانسان من التعب الشديد والعناء المضى
المميت • قل لى بربك لو استبدلت كلمة « يصعد » بكلمة « يصعد » من غير
تشديد ألا تحس أن التعب قد خف ، وأن العناء قد تضاعف ؟ •

ان هذه الكلمة القرآنية بظلالها وجرسها وايجائها هى وحدها من بين مفردات
اللغة العربية القادرة على تصوير هذا الضيق وابرازه فى صورة حية متحركة
مشاعدة ملموسة تأمل الصياغة القرآنية وجمالها وقوة تأثيرها وقدرتها على
التصوير • انها السر الخفى الذى لا يصل البشر الى معرفته مهما أوتوا من
قوة البيان ، وبرعوا فى ميدان صناعة الكلام •

وهذا غيض من فيض مما يزخر به القرآن من نفائس البيان فى هذا
الميدان •

من روائع الاستعارة في القرآن الكريم

قال تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون (١) » .

استعير في الآية الكريمة : « السلخ » وهو كشط الجلد عن الشاة ونحوها لازالة ضوء النهار عن الكون قليلا قليلا . بجامع ما يترتب على كل منهما من ظهور شيء كان خافيا ، فبكشط الجلد يظهر لحم الشاة ، وبغروب الشمس تظهر الظلمة التي هي الاصل والنور طارئ عليها ، يسترها بضوئه ، ثم اشتق من السلخ : « نسلخ » بمعنى « نزيل » .

وهذا التعبير الفني يسميه علماء البلاغة « الاستعارة التصريحية التبعية » .

استعارة رائعة وجميلة . انها بنظمها الفريد وبإيحائها وظلها وجرسها قد رسمت منظر بديعا للضوء وهو ينحسر عن الكون قليلا قليلا وللظلام وهو يجذب اليه في بطن .

انها قد خلعت على الضوء والظلام الحياة ، حتى لقد صارا كأنهما جيشان يفتتلان ، قد أنهزم أحدهما فولى هاربا ، وترك مكانه للآخر .

تأمل اللفظة المستعارة وهي « نسلخ » ان هذه الكلمة هي التي قد استقلت بالتصوير والتعبير داخل نظم الآية المعجز فهل يصلح مكانها غيرها ؟

قال تعالى : « والصبح اذا تنفس (٢) »

استعير في الآية الكريمة خروج النفس شيئا فشيئا لخروج النور من المشرق عند انشقاق الفجر قليلا قليلا بجامع التتابع على طريق التدريج ، ثم اشتق من التنفس بمعنى خروج النفس . تنفس بمعنى خرج النور من المشرق عند انشقاق الفجر .

استعارة قد بلغت من الحسن أقصاه ، وتربعت على عرش الجمال بنظمها الفريد . انها قد خلعت على الصبح الحياة حتى لقد صار كأننا حيا يتنفس ، بل انسانا ذا عواطف وخلجات نفسية ، تشرق الحياة بإشراقة من ثغره المنفوخ

عن ابتسامة وديعة ، وهو يتنفس بهدوء ، فتتنفس معه الحياة ، ويدب النشاط في الاحياء على وجه الارض والسماء • أرايت أعجب من هذا التصوير ، ولا أمتع من هذا التعبير ؟

ثم تأمل اللفظة المستعارة وهي « تنفس » انها بصوتها الجميل وظلها الظليل ، وجرسها الساحر قد رسمت هذه الصورة البديعة في اطار نظم الآية المعجز • فهل هناك لفظ من ألفاظ اللغة العربية على كثرتها يؤدي ما أدته ، وبصور ما صورته ؟

قال تعالى : « انا لما طفى الماء حملناكم في الجارية (١) » •

استعير في الآية الكريمة « الطغيان » لاكثره الماء بجوامع الخروج عن حد الاعتدال والاستعلاء المفرط في كل منهما •

ثم اشتق من الطغيان : « طفى » بمعنى كثر •

استعارة فريدة لا توجد في غير القرآن انها تصور لك الماء اذا كثر وفار واضطرب بالطاغية الذي جاوز حده ، وأفرط في استعلائه • أرايت أعجب من هذا التصوير الذي يخلع على الماء صفات الانسان الآدمي ؟ ثم تأمل اللفظة المستعارة « طفى » انها بصوتها وظلها وجرسها ايحائها قد استقلت برسم هذه الصورة الساحرة في اطار نظم الآية المعجز •

قال تعالى : « فاصدع بها تؤمر وأعرض عن المشركين (٢) » •

استعير في الآية الكريمة : « الصدع » وهو كسر الزجاج للتبليغ بجوامع التأثير في كل منهما أما في التبليغ فلان المبلغ قد أثر في الامور المبلغة ببيانها بحيث لا تعود الى حالتها الاولى من الخفاء ، وأما في الكسر فلان فيه تأثير لا يعود المكسور معه الى الانتماء •

ثم اشتق من الصدع بمعنى التبليغ اصدع بمعنى بلغ •

استعارة رائعة وجميلة انها تبرز لك ما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم في صورة مادة يشق بها ويصدع • انها تبرز لك المعنى المعقول في

(١) الحاقة : ١١

(٢) الحجر : ٩٤

صورة حسية متحركة كأنك تراها بعينك وتلمسها بيدك • تأمل اللفظة المستعارة « اصدع » انها بصوتها وجرسها وايجائها قد استقلت برسم هذه الصورة الفريدة المؤثرة اذ ان من يقرأها يخيل اليه أنه يسمع حركة هذه المادة المصدوعة تخيل لو استبدلت كلمة « اصدع » بكلمة « بلغ » ألا تحس أن عنصر التأثير قد تضاعف ، وأن الصورة الحية المتحركة قد اختفت وأن المعنى قد أصبح شاحبا باهتا ؟

ان اللفظة المستعارة هي التي رسمت هذه الصورة في اطار نظم الآية المعجز •

قال تعالى : « وتركنا بعضهم يوهنذ يهوج في بعض ونفح في الصور فجمعناهم جميعا (١) » •

استعير في الآية الكريمة الموج « حركة الماء » للدفع الشديد بجامع سرعة الاضطراب وتتابعه في الكثرة ثم اشتق من الموج بمعنى الدفع الشديد « يموج » بمعنى يدفع بشدة •

ان هذه الاستعارة القرآنية الرائعة تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس احتشادا لا تدرك العين مداه حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر ترى العين منه ما تراه في البحر الزاخر من حركة وتموج واضطراب • تأمل اللفظة المستعارة انها في اطار نظم الآية المعجز قد استقلت برسم هذا المشهد الفريد بصوتها وجرسها وايجائها •

قال تعالى : « آزر • كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور (٢) » •

استعير في الآية الكريمة الظلمات للضلال بجامع عدم الاهتداء في كل منهما ، واستعير النور للهدى بجامع الاهتداء في كل منهما • وهذا المسلك الأدبي يسميه علماء البلاغة « الاستعارة التصريحية الاصلية » •

هذه الاستعارة الفريدة تجعل الهدى والضلال يستحيلان نورا وظلمة • انها تبرز المعاني المعقولة الخفية في صور محسوسة ، حية متحركة كأن العين تراها واليد تلمسها •

(١) الكهف : ١٠٠

(٢) ابراهيم : ١

تأمل كلمة « الظلمات » انها تصور لك بظلامها الضلال ليلا دامسا يطمس معالم الطريق أمام الضال فلا يهتدى الى الحق ثم تأمل الحق القرآنية في جمع « الظلمات » انه يصور لك الى أى مدى ينجهم الطريق أمام الضال فلا يهتدى الى الحق وسط هذا الظلام المتراكم .

ثم تأمل كلمة « النور » انها بنورها تصور لك الهداية مصباحا منيرا ينير جوانب العقل والقلب ويوضح معالم الطريق أمام المهتدى فيصل في سهولة ويسر الى الحق فينتفع به فيطمئن قلبه وتسكن نفسه ويحظى بالسعادة في دنياه وأخراه .

قال تعالى : « وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ، اذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تقور ، تكاد تميز من الغيظ (١) » .

فى هذه الآية الكريمة شبهت جهنم بشخصية آدمية نائرة غاضبة محنقة ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشيء من لوازمه وهو « الغيظ » وهذا الصنيع الأدبي يسميه علماء البلاغة « الاستعارة المكنية » .

ان هذه الاستعارة لا يمكن لانسان مهما أوتى من قوة البيان أن يصور ما فيها من الحسن والجمال انها بنظمها الفريد وصفت النار بصفة الغيظ الغضبان ، الذى من شأنه أن يبالغ فى الانتقام ويتجاوز الغايات فى الإيقاع والإيلام ، انها خلعت على النار الحياة ، وأبرزتها فى صورة آدمية لها انفعالات وجدانية ، وخلجات عاطفية فهى تشهق شهيق الباكين ، وتغضب وتثور ، وهى ذات نفس حادة الشعور (٢) .

قال تعالى : « وما سكت عن موسى الغضب (٣) » .

فى هذه الآية الكريمة شبه الغضب بالانسان النائر الغاضب ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشيء من لوازمه وهو « السكوت » ان هذه الاستعارة الفريدة فوق مقدور البشر . ان نظمها تنبعث منه لطائف وأنوار لا يدركها الا من تذوق حلاوة القرآن . انها تجسم الغضب ، وتلبسه ثوب الانسان آدمى وتخلع عليه أوصافه ، انها تصوره وكأنه انسان يدفع موسى ويحثه على الانفعال والثورة ، ثم سكت وكف عن دفعه وتحريضه .

(١) الملك : ٦ - ٨

(٢) مجازات القرآن ص ٣٣٩

(٣) الاعراف : ١٥٤

قال تعالى : « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها والارض
أتيتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين(١) » •

شبهت فى الآية الكريمة كل من الأرض والسماء بالانسان المستجيب
لنداء ربه المسارع الى تنفيذ أوامره ونواهيته ثم حذف المشبه به ورمز اليه
بشئ من لوازمه وهو « القول » وهذا التعبير الفنى يسميه علماء البلاغة
« الاستعارة المكنية » •

ان هذه الاستعارة الساحرة تخلع على الارض والسماء الحياة وتلبسهما
صورة الآدمى وتمنحهما أوصافه من الارادة والطاعة والاستجابة والمسارعة
الى مرضاة الله بتنفيذ الاوامر ما أعجب هذا التصوير وما أذه وأمتعه • انك
حين تقرأ الآية فى تدبر يخيّل اليك أن الارض والسماء انسانان يقفان فى
خشوع وخضوع وأن مولاها يأمرهما فيطيعان ويدعوهما فيستجيبان • قل لى
بربك هل هناك أعجب من هذا التصوير الذى ينطق الجماد ويبعث فيه الحياة
ويحوّله انسانا قائما طائعا متبتلا ؟ •

قال تعالى : « وقذف فى قلوبهم الرعب(٢) » شبه الرعب فى الآية
الكريمة بأده صلبة ثقيلة سريعة ثم حذف المشبه به ، ورمز اليه بشئ من
لوازمه وهو « القذف » •

انظر الى هذه الاستعارة الفريدة انها تصور لك الرعب وكأنه قذيفة تنفذ
فى القلوب لفورها تصوير رائع جميل يبرز لك المعانى النفسية الخفية فى
صور محسوسة حية متحركة كأنك تراها وتلمسها • تأمل كلمة « قذف »
انها توحى بالقوة ، ثم تأمل اسناد هذه الكلمة الى « الرعب » ومدى ما يحدثه
هذا الاسناد من التجسيم الذى يثير فى النفس أقصى درجات الخوف والانزعاج
انه النظم القرآنى يصور فيبدع ، ويعبر فيعجز •

قال تعالى : « ربنا أفرغ علينا صبرا(٣) » شبه الصبر فى الآية الكريمة
بالسائل ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشئ من لوازمه وهو « أفرغ » وهذا
الصنيع الادبى يسميه علماء البلاغة « الاستعارة المكنية » ان هذه الاستعارة
الفريدة تجعل الصبر يستحيل سائلا يفرغ على الجسم فيهدأ وتحس به النفس
فتسكن ويشعر به القلب فيطمئن • انها تبرز لك هذا المعنى النفسى الخفى فى
صورة حسية مشاهدة ملموسة ثم تأمل الدقة القرآنية فى اختيار كلمة « أفرغ »

(١) فصلت : ١١

(٢) الحشر : ٢

(٣) البقرة : ٢٥٠

انها توحى باللين والرفق الذى يتطلبه المقام وتتشوف اليه نفوس هؤلاء الداعين ، ثم تأمل ما يحدثه ايقاع هذه الكلمة على الصبر من التجسيم الذى يبعث فى النفس أقصى درجات الاطمئنان والسكون والهدوء •

قال تعالى : « فصب عليهم ربك سوط عذاب (١) » •

شبهه فى الآية الكريمة العذاب الشديد بالسائل الذى يصب فى شدة وقوة. ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشئ من لوازمه وهو « الصب » وهذا الصنيع الأدبى يسميه علماء البلاغة « الاستعارة المكنية » •

ان هذه الاستعارة تجعل العذاب الشديد يستحيل سائلا يصب فى شدة وقوة فتضطرب له الأجسام وتنزعج من صبه النفوس وتنخلع لقوته القلوب •

تصوير عجيب يبرز لك هذا المعنى النفسى فى صورة حية متحركة ملموسة مشاهدة مؤثرة •

ثم انظر الدقة فى استعمال كلمة الصب هنا انها توحى بالشدة والقوة معا وهذا الايحاء يتلاءم مع هذا المقام مقام التعذيب • وتأمل ما يحدثه ايقاع هذا الصب على العذاب الشديد فى الآية الكريمة انه يثير فى النفس أقصى درجات الاحساس والشعور بالتعذيب •

قال تعالى : « وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية (٢) » •

شبهت الريح فى الآية الكريمة بالانسان الجبار المتكبر العنيف • ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشئ من لوازمه وهو « العتو » وهذا المسلك الأدبى يسميه علماء البلاغة « الاستعارة المكنية » ان هذه الاستعارة الفريدة تخلع على الريح الحياة وتبرزها لك فى صورة الانسان الجبار المتكبر المفرط فى العنف والاستعلاء • ما أعجب هذا التصوير القرآنى الذى يجعل الريح تستحيل انسانا بلفظة واحدة • ان هذه اللفظة وهى « عاتية » دقق نظرك فيها انها توحى بالعنف والجبروت ثم تأمل الدقة القرآنية فى اسناد هذه اللفظة الى ضمير الريح ان هذا الاسناد هو الذى خلق عليها الحياة ومنحها صفات الانسان العنيف • حدثنى بربك هل هناك أعجب من هذا التصوير الذى يلبس الريح شخصية الأدمى الشرير المجاوز الحد فى العنف والجبروت ؟

ثم دقق نظرك فى مدى ما يحدثه هذا التصوير من التأثير فى النفس والقلب معا ان النفس لتذوب من هول هذا التصوير وان القلب ليكاد ينخلع من شدته .

قال تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب » (١) .

استعير فى الآية الكريمة « الزلزال » للاضطراب الشديد بجامع التأثير الشديد فى كل منهما . ثم اشتق من الزلزال . زلزلوا . بمعنى اضطربوا اضطرابا شديدا وهذا التعبير الفنى يسميه علماء البلاغة « الاستعارة التصريحية التبعية » .

ان هذه الاستعارة القرآنية الفريدة قد صورت الاضطراب الشديد ذلك المعنى النفسى الخفى بصورة الزلزال العنيف المدمر فأبرزته فى صورة حسية متحركة ملموسة مشاهدة تنخلع لهولها القلوب ، وتذهب من شدتها العقول ، وتزوغ من قوتها الابصار .

ان هذه الصورة العجيبة البالغة التأثير قد استقلت برسمها كلمة واحدة هى اللفظة المستعارة « زلزلوا » ان هذه الكلمة بصوتها وجرسها وإيمانها هى التى جسمت هذا المعنى الخفى وأبرزته فى تلك الصورة .

ان أى لفظة أخرى لا تسد مسدها ولا تقوم مقامها فى تحقيق المعنى المطلوب وتصوير الحالة المرجوة .

قال تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون » (٢) .

استعير فى الآية الكريمة « الأودية » الموضوع أصلا للدلالة على المنخفض بين مرتفين للاغراض الشعرية التى يلخصها الشعراء بأفئدتهم ، ويصوغونها بأفكارهم . وهذا التعبير الفنى يسميه علماء البلاغة « الاستعارة التصريحية الأصلية » .

ان هذه الاستعارة الفريدة تجسم لك تلك المعانى الفكرية المجردة

(١) البقرة : ٢١٤

(٢) النمل : ٢٢٤ ، ٢٢٥

وتبرزها في صورة محسوسة مشاهدة ملموسة ، ثم تحولها الى أودية
محيقة ، فهي لا تتقف عند حد التجسيم والتشخيص ، بل تتعداه الى التصيير
والتحويل . وهذا مما انفردت به الاستعارة في القرآن الكريم .

تأمل اللفظة المستعارة « الأودية » انها وحدها قد استقلت برسم هذه
الصورة العجيبة في اطار نظم الآية المعجز . لقد اختارها القرآن دون
مسواها لما بين الفكر والوادي من تناسب في العمق والبعد والخفاء والغموض

من روائع الكناية فى القرآن الكريم

قال تعالى : « نساؤكم حرث لكم (١) » لقد كنى القرآن الكريم فى هذه الآية بكلمة « الحرث » عن المعاشرة الزوجية .

ان هذه الكناية الفريدة مما انفرد به القرآن الكريم فهى لطيفة دقيقة راسمة مصورة ، مؤدبة مهذبة ، فيها من روعة التعبير وجمال التصوير ، وألوان الادب والتهذيب ما لا يستقل به بيان ، ولا يدركه الا من تذوق حلاوة القرآن . انها عبرت عن المعاشرة الزوجية التى من شأنها أن تتم فى السر والخفاء بالحرث وهذا نوع من الادب رفيع لا يوجد فى غير القرآن ، وهذا اللفظ فضلا عما فيه من الادب وثيق الصلة بالمعاشرة الزوجية ، وتنطوى تحته معان كثيرة تحتاج فى التعبير عنها الى آلاف الكلمات انظر الى ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه وصلة الزوج بزوجه فى هذا المجال الخاص . وبين ذلك النبت الذى يخرج الحرث ، وذلك النبت الذى تخرجه الزوج ، وما فى كليهما من تكثير وعمران وفلاح كل هذه الصور والمعانى تنطوى تحت كلمة « الحرث » أليست هذه الكلمة معجزة بنظمتها وتصويرها ؟ هل فى مفردات اللغة العربية - على كثرتها - ما يقوم مقامها ويؤدى ما أدته ويصور ما صورته ؟ ان المعنى لا يتحقق الا بها . وان التصوير لا يوجد بسواها (٢) .

قال تعالى : « فانتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة » (٣) .

هذه الآية كناية عن عدم العناد عند ظهور المعجزة . أى لا تعاندوا عند ظهور المعجزة فتمسكم هذه النار العظيمة تأمل هذه الكناية ومدى ما فيها من جمال التعبير ، وروعة التصوير ، ولطافة الایجاز . انها عبرت عن العناد عند ظهور المعجزة بالنار العظيمة ، وهذا التعبير فيه ما فيه من شدة التنفير وقوة التأثير ، ثم ان هذا التعبير قد أبرز لك هذا المعنى الفكرى المجرد فى صورة محسوسة ملموسة ولم يقف عند هذا الحد من التجسيم والتشخيص بل تعداه الى التصوير والتحويل . فحوّله الى نار ملتهبة متأججة متوهجة . أرايت أعجب من هذا التصوير ، ولا أروع وألذ من هذا التعبير ؟ انه الاعجاز يلبس ثوب الكناية فتحنى له هامات البلغاء ، ويثير فى النفس أسمى آيات الإعجاب .

(١) البقرة : ٢٢٣

(٢) التصوير الفنى فى القرآن ص ٧٨

(٣) البقرة : ٢٤

قال تعالى « **ولكن لا تواءمواهم سرا (١)** » في هذه الآية كنى القرآن الكريم عن الجماع بالسر . تأمل هذه الكناية ومدى ما فيها من اللطائف والانوار والأسرار . ان فى الكناية بالسر عن الجماع من ألوان الادب والتهذيب ما يعجز عن وصفه أساطين البيان ، وفيها من جمال التعبير ما يسترقق الاسماع ويهز العواطف ويحرك الأحاسيس والمشاعر . لقد ألبست الجماع الذى يتم فى السر ثوب السر فذهبت بسر الفصاحة والبيان . أبعد هذا يقال ان الكناية فى القرآن يستطيع أن يحاكيها بنو الانسان ؟ أبدا والله ان بنى الانسان من العجز بحيث لا يمكنهم فهم ما تنطوى عليه الكناية فى القرآن من الاسرار .

قال تعالى : « **ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم (٢)** » .

كنى القرآن الكريم فى هذه الآية بنفى قبول التوبة عن الموت على الكفر . تأمل هذه الكناية ومدى ما فيها من الجمال والروعة . ألا تحس أن التعبير الذى كنى به القرآن أجمل من أى تعبير آخر ؟ ألا تحس أن فى هذا التعبير ايجاز لطيف ؟ ان هذا التعبير بجماله وايجازه وبديع نظمه فوق مقدور البشر .

قال تعالى : « **فجعلهم كعصف مأكول (٣)** » كنى القرآن الكريم « بالعصف المأكول » عن مصيرهم الى العذرة فان الورق اذا أكل انتهى حاله الى ذلك . تأمل هذه الكناية ان فيها من ألوان الادب والجمال ما لا يستقل به بيان ، وفيها من الايجاز اللطيف ما يعجز عن وصفه مهرة صناع الكلام . أما الادب والجمال ففى التعبير عن العذرة بالعصف المأكول وهذا التعبير مما انفرد به القرآن فلا يوجد فى غيره ، وأما الايجاز اللطيف ففى اختصار مقدمات لا أهمية لها بالتنبيه على النتيجة الحاسمة التى يتقرر فيها المصير . وفيها زيادة على ذلك التلازم الوثيق بين اللفظ والمعنى الكنائى الذى لا يتخلف أبدا فان العصف المأكول لابد من صيرورته الى العذرة .

فالمنى لا يؤدى الا بهذا اللفظ ، واللفظ لا يصلح الا لهذا المعنى حتى لتكاد تصعب التفرقة بينهما فلا يدرى أيهما التابع ؟ وأيهما المتبوع ؟ ومن هنا يأتى الإعجاز .

قال تعالى : « **ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط** »

(١) البقرة : ٢٣٥

(٢) آل عمران : ٩٠

(٣) الفيل : ٥

فتتعددها **«موسورا»** (١) كنى القرآن الكريم فى هذه الآية بغل اليد الى العنق عن البخل ، وببسطها كل البسط عن الاسراف . تأمل الكنايتين تجد فيهما من روائع البيان ما لا يحيط به فكر انسان فيهما جمال فى التعبير ، وروعة فى التصوير ، وإيجاز وتأثير ، وتنفير . حدثنى بربك ألا ترى أن التعبير عن البخل باليد المغلولة الى العنق فيه تصوير محسوس لهذه الخلّة المذمومة فى صورة بغیضة منفرة ؟ فهذه اليد التى غلت الى العنق لا تستطيع أن تمتد ، وهو بذلك يرسم صورة البخل الذى لا يستطيع يده أن تمتد بانفاق ولا عطية . والتعبير ببسطها كل البسط يصور هذا المبذر لا يبقى من ماله على شىء كهذا الذى يبسط يده فلا يبقى بها شىء . وهكذا استطاعت الكناية أن تنقل المعنى قويا مؤثرا (٢) ثم تأمل التلازم الوثيق الذى لا يتخلف أبدا بين التعبير والمعنى الكنائى . ان هذا التلازم يدلك على أن المعنى الكنائى لا يمكن تأديته وتصويره الا بهذا التعبير ، وأن هذا التعبير لا يصلح الا لهذا المعنى . هل فى مقدور البشر أن يحاكو هذا الأسلوب ؟

(١) الاسراء : ٢٩

(٢) من بلاغة القرآن ص ٢٢٦

الفصل الخامس

الاعجاز فى نغم القرآن

انك اذا قرأت القرآن قراءة سليمة ، وتلوته تلاوة صحيحة • أدركت أنه يمتاز بأسلوب • ايقاعى ينبعث منه نغم جميل ساحر يبهر الألباب ، ويسترق الاسماع ، ويسيل الدموع من العيون • ويستولى على الاحاسيس والمشاعر • وان هذا النغم يبرز بروزا واضحا فى السور القصار والفواصل السريعة ، ومواضع التصوير والتشخيص بصفة عامة ، ويتوارى قليلا أو كثيرا فى السور الطوال ولكنه - على كل حال - ملحوظ دائما فى بناء النظم القرآنى • وأنه تنوع تنوع موسيقى الوجود فى أنغامه وألحانه • ولعلنا لا نخطئ ان رددنا سحر هذا النغم الى نسق القرآن الذى يجمع بين مزايا النثر والشعر جميعا يقول المرحوم الأستاذ سيد قطب : « على أن النسق القرآنى قد جمع بين مزايا الشعر والنثر جميعا • فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفصيلات التامة ، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة • وأخذ فى الوقت ذاته من خصائص الشعر الموسيقى الداخلية ، والفواصل المتقاربة فى الوزن التى تغنى عن التفاعيل ، والتقفية التى تغنى عن القوافى • وضم ذلك الى الخصائص التى ذكرنا فشأى النثر والنظم جميعا » (١) •

اقرأ معى الآيات الأولى من سورة النجم :

بسم الله الرحمن الرحيم : « والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الاعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى ، ما كذب أفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ؟ ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، اذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، أفرايتهم الملات والعزى ، وهناة الثالثة الاخرى ؟ ألكم الذكر وله الانثى ؟ ذاك اذن قسمة ضيزى » (٢) •

تأمل الآيات تجد فواصل متساوية فى الوزن تقريبا - على نظام غير نظام الشعر العربى - متحدة فى حرف التقفية تماما ، ذات ايقاع موسيقى.

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ٨٦

(٢) النجم : من ١ - ٢٢

متحد تبعا لهذا وذاك ، وتبعاً لأمر آخر لا يظهر ظهور الوزن والقافية ، لانه ينبعث من تالف الحروف فى الكلمات ، وتناسق الكلمات فى الجمل ، ومرده الى الحس الداخلى ، والادراك الموسيقى ، الذى يفرق بين ايقاع موسيقى وايقاع ، ولو اتحدت الفواصل والأوزان .

والايقاع الموسيقى هنا متوسط الزمن تبعا لمتوسط الجملة الموسيقية فى الطول متحد تبعا لتوحد الاسلوب الموسيقى ، مسترسل الروى كجو الحديث الذى يشبه التسلسل القصصى . وهذا كله ملحوظ . وفى بعض الفواصل يبدو ذلك جلياً مثل : « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ؟ » فلو أنك قلت : أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة لاختلت القافية ، ولتأثر الايقاع . ولو قلت : أفرايتم اللات والعزى ومناة الاخرى ، لاختل الوزن . وكذلك فى قوله تعالى : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك - اذن - قسمة ضيزى » فلو قلت : ألكم الذكر وله الانثى تلك قسمة ضيزى ، لاختل الايقاع المستقيم بكلمة اذن .

ولا يعنى هذا أن كلمة « الأخرى » أو كلمة « الثالثة » أو كلمة « اذن » زائدة لمجرد القافية أو الوزن ، فهى ضرورية فى السياق لنكت معنوية خاصة ، وتلك ميزة فنية أخرى أن تأتى اللفظة لتؤدى معنى فى السياق ، وتؤدى تناسبا فى الايقاع ، دون أن يطغى هذا على ذلك ، أو يخضع النظم للضرورات (١) .

ونلاحظ فى النص القرآنى أن اتزان الايقاع فى الآيات والفواصل يبدو واضحاً فى كل موضع . ودليل ذلك أن يعدل فى التعبير عن الصورة القياسية للكلمة الى صورة خاصة أن أن يبني النسق على نحو يختل اذا قدمت أو أخرت فيه . أو عدلت فى النظم أى تعديل .

وان هذا النغم القرآنى ليبدو فى قمة السحر والتأثير فى مقام الدعاء . اذ الدعاء - بطبيعته - ضرب من النشيد الصاعد الى الله ، فلا يحلو وقعه فى نفس الضارع المبتهل الا اذا كانت ألفاظه جميلة منتقاة وجمله متناسقة متعانقة ، وفواصله متساوية ذات ايقاع موسيقى متزن ، والقرآن الكريم لم ينطق عن لسان النبيين والصديقين والصالحين الا بأحلى الدعاء نغماً ، وأروع سحر بيان ، ان النغم الصاعد من القرآن خلال الدعاء يثير بكل لفظة صورة ، وينشئ فى كل لحن مرتعا للخيال فسيحاً : فتصور مثلاً - ونحن نرتل دعاء زكريا عليه السلام - شيخاً جليلاً مهيباً على كل لفظة ينطق بها مسحة من رهبة ، وشعاع من نور ، ونتمثل هذا الشيخ الجليل - على وقاره - متأجج

العاطفة ، متهدج الصوت ، طويل النفس ، ما تبرح أصداء كلماته تتجاوب فى أعماق شديدة التأثير . بل ان زكريا فى دعائه ليحرك القلوب المتحجرة بتعبيره الصادق عن حزنه وأسائه خوفا من انقطاع عقبه ، وهو قائم يصلى فى المحراب لاينى ينادى اسم « ربه » نداء خفيا ، ويكرر اسم « ربه » بكرة وعشيا ، ويقول فى لوعة الانسان المحروم وفى ايمان الصديق الصفى : « رب انى وهن العظم منى ، واشتعل الرأس شيبا ، ولم اكن بدعائك - رب - شقيا ، وانى خفت الموالى دن ورائى ، وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا . يرثنى ويرث من آل يعقوب واجده » رب رضى (١) وان البيان لا يرقى هنا الى وصف العذوبة التى تنتهى فى فاصلة كل آية ببيائها المشددة وتنوينها المحول عند الوقف ألفا لينة كأنها فى الشعر ألف الاطلاق : فهذه الاف اللينة الرخية المناسبة تناسقت بها « شقيا - وليا - رضى » مع عبد الله زكريا ينادى ربه نداء خفيا (٢) ولقد استشعرنا هذا الجور الغنائى ونحن نتصور نبيا يبتهل وحده فى خلوة مع الله ، وكدنا نصغى الى ألعانه الخفية تتصاعد فى السماء ، فكيف بنا لو تصورنا جماعة من الصديقين الصالحين وهم يشتركون : ذكرانا واناثا ، شبانا وشيبا ، بأصوات رخية متناسقة تضعد معا وتهبط معا وهى تجأ الى الله ، وتنشد هذا النشيد الفخم الجليل : « ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانه فقنا عذاب النار ، ربنا انك من تدخل النار فقد أخذته ، وما الظالمين من أنصار ، ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى بالإيمان أن آمنوا بربكم فامنا . ربنا فاعفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسالك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخاف الميعاد » (٣) .

ان فى تكرار عبارة « ربنا » لما يلين القلب ، ويبعث فيه نداوة الايمان ، وان فى الوقوف بالسكون على الرء المذلقة المسبوقة بهذه الألف اللينة لما يعين على الترخيم والترنيم ، ويعوض فى الاسماع أحلى ضربات الوتر على أعذب العيدان .

ولئن كان فى موقفى الدعاءين هذين نداوة ولين ، وفى بعض مواقف الدعاء القرآنية الأخرى صخب رهيب : ها هو ذا نوح عليه السلام يدأب ليلا ونهارا على دعوة قومه الى الحق ، ويصر على نصحهم سرا وعلانية ، وهم يلجون فى كفرهم وعنادهم ، ويفرون من الهدى فرارا ، ولا يزدادون الا ضللا واستكبارا ، فما على نوح - وقد أيس منهم - الا أن يتملكه الغيظ ويمتلئ فوه بكلمات الدعاء النائرة النضبي تنطلق فى الوجوه مديدة مجلجلة ، بموسياتها الرهيبة ،

(١) مريم : من ٤ - ٦

(٢) مباحث فى علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح ص ٣٣٨

(٣) آل عمران : ١٩١ - ١٩٤

«وايقاعها العنيف ، وما أظنك تتخيل الجبال الا دكا ، والسماء الا متجهمة عابسة ، والأرض الا مهتزة مزلزلة ، والبجار الا هائجة ثائرة ، حين دعا نوح على قومه بالهلاك والنيار فقال : « رب لا تذّر لأى الأرض من الكافرين ديّارا ، انك ان تذّرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا • رب اغفرلى ولوالدى ولان دخل بيتى مؤمنا ، والمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين الا تبارا » (١) •

أما الحناجر الكظيمة المكبوتة التى يتركها القرآن فى بعض مشاهدته تطلق أصواتها الحبيسة - بكل كربها وضيقها وبحتها وحشرجتها - فهى حناجر الكافرين النادمين يوم الحساب العسير ، فيتحسرون ويحاولون التنفيس عن كربهم ببعض الاصوات المتقطعة المتهدجة ، كأنهم بها يتخففون من أثقال تنقص ظهورهم ، ويفرغون عن طريقها ما يعانون من عذاب اليم : وإذا هم يوم الدين يدعون ربهم دعاء التائبين النادمين ويقولون : « ربنا انا أظننا سادتنا وكبرانا فاضلونا السيلا • ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبير » (٢) •

وان هذه الموسيقى الداخلية لتنبعث فى القرآن حتى من اللفظة المفردة فى كل آية من آياته ، فتكاد تستقل - بجرسها ونغمها - بتصوير لوحة كاملة فيها اللون زاهيا أو شاحبا ، وفيها الظل شفيفا أو كثيفا • أرأيت لونا أزهى من نضرة الوجوه السعيدة الناضرة الى الله ، ولونا أشدّ تجهما من سواد الوجوه الشقية الكالحة الباسرة فى قوله تعالى : « **ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة** » (١) لقد استقلت فى لوحة السعداء لفظة « ناضرة » بتصوير أزهى لون وأبهاء ، كما استقلت فى لوحة الأشقياء لفظة « باسرة » برسم أمقت لون وأنكاه •

وحين نتسمع همس السين المكررة تكاد تستشف نعومة ظلها مثلما تستريح الى خفة وقعها فى قوله تعالى : « **فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس • والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس** » (٢) بينما تقع الرهبة فى صدرك وأنت تسمع لامثا مكروبا صوت الدال المنذرة المتوعدة مسبوقة بالياء المشبعة الجديدة فى لفظة « تحيد » بدلا من « تنحرف » فى قوله تعالى : « **وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد** » (٣) •

وتقرأ قوله تعالى : « **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** » (٤) •

(١) الآيات الاخيرة من سورة نوح •

(٢) الاحزاب : ٦٧ - ٦٨

(١) القيامة : ٢٢ - ٢٥

(٢) التكوين : ١٥ - ١٨

(٣) ق : ١٩

(٤) آل عمران : ١٨٥

فلا ترى في المعجم غير كلمة « زحزح » تصور مشهد الابعاد والتنحية بكل ما يقع في هذا المشهد من أصوات ، وما يصاحبه من ذكر الذي يمر بحسيس النار ويسمعه ويكاد يصله • وليأخذك من الغيظ مثل ما يأخذ جهنم حين تتسمع لفظ « تميز » من قوله تعالى : « **تكاد تميز من الغيظ (٥)** » •

وليستولين عليك القلق وأنت تكرر هاء السكت في أكثر فواصل سورة الحاقة ، فتنسى وأنت تتلو قوله تعالى : « **ما أغنى عني ماليه • هلك عني سلطانيه (٦)** » أن الذي هلك سلطانه من أوتى كتابه بشماله ، لا أنت ولا سلطانك ، فتظل من الآيات في قلق شديد •

وما أحسب شفتيك الا منقبضتين استقباحا واستهجانا لحال الكافر الذي يتجرع صديده ولا يكاد يسيغه في قوله تعالى : « **ويسقى من ماء صديد • يتجرعه ولا يكاد يسيغه (٧)** » فتستشعر في لفظ « التجرع » ثقلا وبطأ يدعوان الى التفرز والكراهية •

ولا أحسبك الا مستشعرا عنف لفظ الكيبكة • في قوله تعالى : « **فككبوا فيها هم والغاؤون (١)** » حتى لتكاد تتصور أولئك المجرمين يكون على وجوههم أو على مناخرهم ويلقون القاء المهملين ، فلا يقيم أحد لهم وزنا •

وهكذا تتبدى تلك الموسيقى الداخلية في بناء التعبير القرآني موزونة بميزان شديد الحساسية تميله أخف الحركات والاهتزازات ، ولو لم يكن شعرا أو لو لم يفتقد بقيود الشعر الكثيرة التي تحد من الحرية الكاملة في التعبير الدقيق عن القصد المطلوب •

فليست الفاصلة فيه كقافية الشعر تقاس بالتفعيلات والأوزان ، وتضيظ بالحركات والسكنات ولا النظم فيه يعتمد على الحشو والتطويل ، أو الزيادة والتكرار ، أو الحذف والنقصان ، ولا الألفاظ تحشد حشدا ، وتلصق الصاقا ، ويلتمس فيها الإبهام والأغراب ، بل الفاصلة طليقة من كل قيد ، والنظم بنجوة من كل صنعة ، والألفاظ بمعزل عن كل تعقيد : ان هو الا أسلوب يؤدي غرضه كاملا غير منقوص ، يلين أو يشدد ، ويهدأ أو يهيج ، ينساب انسيابا كالماء اذ يمسقى الغراس ، أو يعصف عصفا كأنه صرصر عاتية تبهر الانفاس •

(٥) الملك : ٨

(٦) الحاقة : ٢٩

(٧) ابراهيم : ١٧

(١) الشعراء : ٩٤

خاتمة

لقد حاولت - قدر استطاعتي - أن ألم أطراف هذا الموضوع المتشعب ألا وهو الوقوف على سر اعجاز القرآن العظيم ، وقد توصلت فى النهاية الى أن اعجازه انما يكمن فى نسقه الذى يجمع بين مزايا الشعر والنثر ، بموسيقاه الداخلية ، وفواصله المتقاربة فى الوزن التى تغنى عن التفاعيل ، وتقفيته التى تغنى عن القوافى ، وتصويره العجيب الذى ييبث الحركة والحياة فى المشاهد ، ويبرز المعانى المجردة فى صور محسوسة مشاهدة ملموسة ، ويخلع الحياة على الجمادات فيخيل للسامع أنها كائنات حية لها أحاسيس ومشاعر ، وخلجات وعواطف . ذلك هو القرآن : ان نظن لم ينطق الا بالحق ، وان علم لم يعلم الا الهدى والارشاد ، وان صور لم يصور الا أجمل لوحات الحياة ، وان رتل ترتيلا لم يسمع بعده لحن فى الوجود .

ذلك كتاب الله المجيد « لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

والآن وقد انتهيت من هذه السياحة العجلى فى رحاب القرآن الكريم . أحب أن أقرر أنه لا يستطيع أن يدرك الاعجاز فى نظم القرآن ، الا من وفق لاكتساب عدة أمور هى :

١ - ذهن صاف ، وقلب سليم من الأمراض ، يقى من الآفات ، مماوء بحب الله وحب رسوله صلى الله عليه وسلم .

٢ - احاطة تامة بعلم التجويد تمكنه من تلاوة كتاب الله تلاوة صحيحة سليمة .

٣ - حفظ كتاب الله عز وجل ، والمداومة على تلاوته فى تدبر وتأمل وخشوع .

٤ - ذوق رقيق ، وطبع سليم ، وطول معايشة لأساليب اللغة العربية شعرا ونثرا .

٥ - بصيرة نافذة حكيمة ، وخس مرهف يدرك ما احتجب من الأسرار خلف الأستار وفى ختام هذه الخاتمة أضع هذا الجهد المتواضع بين يدي القارئ الكريم مرحبا بكل نقد يهدف الى الوصول الى الحقيقة .

والله الكريم أسأل أن يرزقنا الاخلاص وأن يهيئ لنا أسباب المعرفة ،
وأن يفتح علينا فتوح العارفين ، وأن يفيض علينا من علمه ، وأن يمدنا بمدد
من عنده ، وأن يشفى قلوبنا من الأمراض ، وأن ينقيها من جميع الاقذار وأن
يكفيننا شر خلقه ، انه سميع مجيب ، وهو حسي ونعم الوكيل ، وصلى الله
وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الدكتور

محمود السيد شيخون

الأستاذ المساعد في الجامعة

الاسلامية بالمدينة المنورة.

مصادر البحث

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - الاتقان في علوم القرآن .
- ٣ - الإشارة الى الايجاز في بعض أنواع المجاز . لعز الدين بن عبد السلام ط . الأستانة سنة ١٣١٣ هـ .
- ٤ - اعجاز القرآن . للباقلاني ط . دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢ م .
- ٥ - اعجاز القرآن والبلاغة النبوية . لمصطفى صادق الرافعي ط . مصر سنة ١٩٢٦ م .
- ٦ - الانتصار . لابن الخياط المعتزلى . نشرة « نيبيرج » .
- ٧ - البداية والنهاية . لابن كثير ط . مطبعة السعادة سنة ١٣٥١ هـ .
- ٨ - بديع القرآن . لابن أبى الاصبع المصرى تحقيق الدكتور حفى شرف ط . مصر سنة ١٩٥٧ م .
- ٩ - البرهان فى علوم القرآن . للزركشى ط . الحلنى بمصر سنة ١٩٥٨ م .
- ١٠ - بيان اعجاز القرآن . للخطابى ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ط . المعارف بمصر .
- ١١ - البيان والتبيين . للجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون .
- ١٢ - تاريخ آداب العرب . لمصطفى صادق الرافعى ج ٢ ط بيروت سنة ١٩٧٤ م .
- ١٣ - تأويل مشكل القرآن . لابن قتيبة . تحقيق السيد أحمد صقر ط . مصر سنة ١٩٥٤ م .
- ١٤ - التبيان فى علوم القرآن . لمحمد على الصابونى ط . بيروت سنة ١٩٧٠ م .

- ١٥ - تحرير التحبير • لابن أبى الاصبع المصرى • تحقيق الدكتور حنفى شرف
نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر سنة ١٩٦٣ م •
- ١٦ - التصوير الفنى فى القرآن • للاستاذ سيد قطب ط • القاهرة
سنة ١٩٦٦ م •
- ١٧ - التعبير الفنى فى القرآن • للدكتور بكرى شيخ أمين ط • بيروت
سنة ١٩٧٣ م •
- ١٨ - تفسير الطبرى • ط بولاق •
- ١٩ - تلخيص البيان فى مجازات القرآن • للشريف الرضى • تحقيق محمد
عبد الغنى حسن ط الجلبى بمصر سنة ١٩٥٥ م •
- ٢٠ - حجج النبوة ضمن رسائل الجاحظ • نشر السندوبى •
- ٢١ - الحيوان • للجاحظ • تحقيق عبد السلام هارون •
- ٢٢ - دلائل الاعجاز • لعبد القاهر الجرجانى ط • مصر سنة ١٩٥٠ م •
- ٢٣ - ديوان أمية بن أبى الصلت •
- ٢٤ - رسائل الجاحظ على هامش الكامل للمبرد ط • مصر سنة ١٣٢٣ هـ •
- ٢٥ - الرسالة الشافعية • لعبد القاهر الجرجانى ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز
القرآن ط • دار المعارف بمصر تحقيق الدكتور / محمد خلف الله أحمد ،
ومحمد زغلول سلام •
- ٢٦ - رسالة فى اعجاز القرآن • لابن كمال باشا مخطوطة فى مكتبة الازهر
تحت رقم ٨٨٥ مجاميع •
- ٢٧ - زهر الآداب • للحصرى •
- ٢٨ - سيرة النبى صلى الله عليه وسلم • لابن هشام تحقيق محمد محبى الدين
عبد الحميد •
- ٢٩ - كشف الظنون • لحاجى خليفة ط • مصر سنة ١٩٤٣ م •

- ٣٠ - الكامل • لابن الأثير ط • ليدن •
- ٣١ - الكامل • للمبرد ط مصر سنة ١٣٢٣ هـ •
- ٣٢ - لسان العرب • لان منظور ط • بولاق سنة ١٣٠٠ هـ •
- ٣٣ - مباحث فى علوم القرآن • للدكتور صبحى الصالح ط • بيروت
سنة ١٩٦٥ م •
- ٣٤ - مجاز القرآن • لأبى عبيدة معمر بن المثنى • تحقيق فؤاد سركين
ط • الخانجى بمصر سنة ١٩٥٤ م •
- ٣٥ - مختار الصحاح • للرازى ط • مصر سنة ١٩٢٢ م •
- ٣٦ - مشاهد القيامة فى القرآن • للاستاذ سيد قطب ط • القاهرة •
- ٣٧ - من روائع القرآن • للبوطى ط • دمشق سنة ١٩٧٠ م •
- ٣٨ - مقدمة نقد النثر ط • بولاق سنة ١٩٤١ م •
- ٣٩ - مناهل العرفان • للزرقانى ط • مصر سنة ١٣٧٢ هـ •
- ٤٠ - النشر فى القراءات العشر • لابن الجزرى ط • دمشق •
- ٤١ - النكت فى اعجاز القرآن • للرمانى • ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز
القرآن ط • المعارف بمصر •
- ٤٢ - نهاية الأرب • للنويرى • ط • دار الكتب المصرية •

فهرس موضوعات البحث

الصفحة	الموضوع
٢	تمهيد
٥	مقدمه
	الفصل الأول : الإعجاز
٧	نشأته — تطوره — وجوهه
٢٥	الفصل الثاني : الذين كتبوا في الإعجاز
٦٢	الفصل الثالث : مظاهر الإعجاز في نظم القرآن
٦٦	المظهر الأول : الخصائص المتعلقة بأسلوبه
٧٧	المظهر الثاني : المفردة القرآنية
٨٦	المظهر الثالث : الجملة القرآنية وصياغتها
٩١	المظهر الرابع : الإعجاز والبلاغة
٩٣	من روائع التشبيه في القرآن الكريم
١٠١	من روائع الاستعارة في القرآن الكريم
١٠٩	من روائع السكناية في القرآن الكريم
١١٢	الفصل الخامس : الإعجاز في نظم القرآن
١١٧	خاتمة
١١٩	مصادر البحث

دار التراث في الطباعة
١٣ شارع سعد الله بالدوبل الأخر
٩٣٧١٤٥١